هدية
من المؤلف

تأملات في سورة البقرة

الجزء الثاني

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
عام ١٤٢٦ هـ

بقلم
حسن محمد باجودة
أستاذ الدراسات القرآنية البيانية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

قاعة بحث العلوم الشرعية
بمعهد الدراسات القرآنية
للبنات بمكة المكرمة
الرقم العام: ٥٢٣٤٨
الرقم الخاص:
تاريخ الورود:
١٤٣٠/١١/

طبع بإذن من إدارة المطبوعات بمكة المكرمة
برقم ١٢/١٣٤٦ م
وتاريخ ١٤١٠/١٠/١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

[٧]

إبراهيم عليه السّلام المسلم لله ربّ العالمين

الآيات ١٢٤ ــ ١٤١

وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ
فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ
ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ
أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ
لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ
قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ
وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ

إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا
وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

بعد الحديث المستفيض عن بنى إسرائيل فى سورة البقرة المدنيّة وبعد الحديث عن جوانب من حياتهم وتعنّتهم خلال تاريخهم الطّويل منذ عهد رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام إلى عهد بعثة المصطفى ﷺ وهجرته إلى المدينة المنوّرة حيث توجد فى تلك المنطقة فلولٌ من بقاياهم ، تمّ التحوّل فى الحديث إلى إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء والسّابق زمنًا كلاًّ من موسى وعيسى عليهما السّلام والعجيب فى أمر بنى إسرائيل أنّهم وهم المتأخّرون زمنًا يزعمون أنّ إبراهيم عليه السّلام المتقدّم على موسى عليه السّلام زمنًا كان يهوديًّا وقد فنّدت هذا الزّعم الآية الكريمة السّابعة والسّتّون من سورة آل عمران .

ويقرّر سياق سورة البقرة أنّ الله سبحانه وتعالى ابتلى إبراهيم عليه السّلام بكلمات فأتمّهنّ على خير وجه فكافأه ربّه جلّ وعلا بأن جعله للنّاس إمامًا وسأل إبراهيم عليه السّلام ربّه أن يجعل الإمامة فى ذرّيّته فبيّن ربّ العزّة أنّ العهد بالإمامة لا ينال الظّالمين من الذّرّيّة بل المقسطين . وقد جعل الله تعالى البيت الحرام مثابةً للنّاس وأمنًا وأمر بأن نتّخذ من مقام إبراهيم مصلّى ، وعهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل بأن يطهّرا البيت الحرام . ودعا إبراهيم عليه السّلام ربّه أن يجعل البلد الحرام بلدًا آمنًا وأن يرزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر فاستجاب الله دعاءه برزق من آمن وشمل فضله من كفر بأن رزقه دليلاً على هوان الكافر وهوان هذه الحياة الأولى . ويقرّر السّياق رفع إبراهيم عليه السّلام القواعد من البيت وإسماعيل ودعاءهما الله تعالى أن يتقبّل منهما عملهما وأن يجعل منهما ومن ذرّيّتهما أمّةً مسلمة ، وأن يريهم مناسكهم وأن يتوب عليهم . كما دعوا الله تعالى أن يبعث فى هذه الأمّة رسولاً منهم يتلو عليهم آياته جلّ وعلا ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم . ويقرّر السّياق أنّ الّذى يرغب عن ملّة إبراهيم هو الّذى جهل قدر نفسه وقد اصطفاه الله تعالى فى الدّنيا وهو فى الآخرة من الصّالحين وقد بادر إلى امتثال أمر الله تعالى بأن أسلم لله ربّ العالمين ، وقد وصّى بهذه الملّة إبراهيم عليه السّلام بنيه كما وصّى بها يعقوب .

وفى هيئة الأسلوب الاستفهامىّ الإنكارى يخاطب السّياق اليهود والنّصارى الّذين ينسبون إلى إبراهيم ما لم يوص به بنيه وأنّهم على اليهوديّة والنّصرانيّة فردّ عليهم فى القول :

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهًا واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ إنّ كلّ أمّةٍ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴿ ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى ﴾ . وإنّ اليهود قالوا للمسلمين كونوا هودًا تهتدوا وقال النّصارى كونوا نصارى ويأمرنا القرآن الكريم بأن نقول بل نتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين يا من زعمتم أنّ عزيرًا ابن الله وأنّ المسيح ابن الله وقولوا أيّها المسلمون آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما آتى الله تعالى موسى وعيسى والنّبيّين ، لا نفرّق بين أحدٍ منهم خلافًا لكم أيّها اليهود والنّصارى ونحن له مسلمون جلّ وعلا . إنّ اليهود والنّصارى إن آمنوا بمثل ما آمنّا به فقد اهتدوا وإن أعرضوا فإنّما هم فى شقاقٍ وخلافٍ وعناد وسيكفى الله تعالى المصطفى ﷺ شرورهم . إنّ دين الإسلام هو صبغة الله الّتى صبغ بها المسلمين وليس أحدٌ أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . ويكرّر اليهود والنّصارى ادّعاءهم بأنّ إبراهيم عليه السّلام يهودىّ فى نظر اليهود نصرانىّ فى نظر النّصارى وهنا يأتى الاستفهام الإنكارىّ المفحم : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ إنّه لا أحد أظلم ممّن كتم شهادةً وصلت عنده من الله تعالى بأنّ إبراهيم عليه السّلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا وكذلك إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . ويختم الجزء بتكرار الآية الكريمة الرّابعة والثّلاثين بعد المائة : ﴿ تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسْألون عمّا كانوا يعملون ﴾ .

الآيــة رقــم (١٢٤)

قال تعالى : ﴿ وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمّهنّ قال إنّى جاعلك للنّاس إمامًا قال ومن ذرّيّتى قال لا ينال عهدى الظّالمين ﴾ .

وإذ : واذكر إذ[1] والخطاب للنّبىّ محمّد ﷺ[2] .

---

(١) الكشّاف ١ / ٢٣٦ والبحر المحيط ١ / ٣٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٤ .

ابتلى : الابتلاء : الامتحان والاختبار[١] .

إبراهيم : اسم علم أعجميّ . قيل ومعناه بالسّريانيّة قبل النّقل إلى العلميّة أبٌ رحيم[٢] وإبراهيم هنا وفى جميع القرآن هو الجدّ الحادى والثّلاثون لنبيّنا رسول الله ﷺ ، وهو خليل الله[٣] وقراءة العامّة إبراهيم بالنّصب[٤] وقدّم على الفاعل للاهتمام . إذ كون الرّبّ تبارك وتعالى مبتليًا معلوم ، وكون الضمير المفعول فى العربيّة متّصلاً بالفاعل موجبُ تقديم المفعول ، فإنّما بُنِى الكلام على هذا الاهتمام فاعلمه[٥] .

بكلمات : الكلمات جمع كلمة ، وترجع حقيقتها إلى كلام البارى تعالى ، لكنّه عبّر بها عن الوظائف الّتى كُلِّفهَا إبراهيم عليه السّلام . ولمّا كان تكليفها بالكلام سمّيت به كما سمّى عيسى كلمة ، لأنّه صدر عن كلمة وهى كن[٦] والكلمات لم تبيّن فى القرآن ما هى ولا فى الحديث الصّحيح . وللمفسرين فيها أقوال[٧] قيل هى مجموعةٌ من الأوامر والنّواهى[٨] وقال ابن عبّاس : هى مناسك الحج[٩] وفى البخارىّ أنّه اختتن وهو ابن ثمانين سنةً بالقدوم وأوحى الله إليه : إنّى جاعلك للنّاس إمامًا يأتمّون بك فى هذه الخصال ويقتدى بك الصّالحون[١٠] وقيل هى شرائع الإسلام ، وقد جاءت الإشارات إليها فى سورة التّوبة ، وسورة الأحزاب ، وسورة المؤمنون ، وسورة المعارج[١١] قال تعالى[١٢] : ﴿ التّائبون العابدون الحامدون السّائحون الرّاكعون السّاجدون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين ﴾ وقال تعالى[١٣] :

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٢ والبحر المحيط ١ / ٣٧٤ وتفسير ابن كثير ١ / ١٦٤ وتفسير الطّبرى ١ / ٤١٤ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٢

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٧٤ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٣

(٥) تفسير القرطبىّ ٤٨٣ .

(٦) تفسير القرطبىّ ٤٨٣

(٧) البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

(٨) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٤ .

(٩) تفسير الطّبرى ١ / ٤١٦ وتفسير القرطبىّ ص ٤٨٤ والبحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

(١٠) البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

(١١) انظر تفسير الطّبرى ١ / ٤١٤ وتفسير القرطبىّ ص ٤٨٣ .

(١٢) سورة التّوبة ١١٢

(١٣) سورة الأحزاب ٣٥ .

﴿ إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيرًا والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرةً وأجرًا عظيما ﴾ وقال تعالى[١] : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الّذين هم فى صلاتهم خاشعون . والّذين هم عن اللّغو معرضون . والّذين هم للزّكاة فاعلون . والّذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنّهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والّذين على صَلَواتهم يحافظون ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ إلاّ المصّلين . الّذين هم على صلاتهم دائمون . والّذين فى أموالهم حقٌّ معلوم . للسّائل والمحروم . والّذين يصدّقون بيوم الدّين . والّذين هم من عذاب ربّهم مشفقون . إنّ عذاب ربّهم غير مأمون . والّذين هم لفروجهم حافظون . إلاّ على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهُمْ فإنّهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والّذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والّذين هم بشهاداتهم قائمون . والّذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ . وعن ابن عباس قال : ستّةٌ فى الإنسان وأربعةٌ فى المشاعر . فالّتى فى الإنسان حلق العانة والختان ونتف الإبط وتقليم الأظفار وقصّ الشّارب والغسل يوم الجمعة ، وأربعة فى المشاعر : الطّواف ، والسّعى بين الصّفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة[٣] .

إلى غير ذلك من أقوال . وقد قال أبو حيّان[٤] : « وهذه الأقوال ينبغى أن تحمل على أنّ كلّ قائلٍ منها ذكر طائفةً ممّا ابتلى الله به إبراهيم ، إذ كلّها ابتلاه بها ، ولا يحمل ذلك على الحصر فى العدد ولا على التّعيين لئلاّ يؤدّى ذلك إلى التّناقض » ومن هذه الأقوال الّتى ذكرها أبو حيّان[٥] فى تعبيرٍ لطيف « ما ابتلاه به فى ماله وولده ونفسه . فسلّم ماله للضّيفان . وولده للقربان . ونفسه للنّيران . وقلبه للرّحمن . فاتّخذه الله خليلا » .

---

(١) سورة المؤمنون ١ — ٩ (٢) سورة المعارج ٢٢ — ٣٤ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٥ وانظر الخلال العشر من السّنّة فى تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٤ وفى معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٦ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٧٥ (٥) البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

فأتمّهنّ : أتى بهنّ على الوجه المأمور به[١] والإتمام الإكمال . والهمزة فيه للنّقل[٢] .

للنّاس : يجوز أن يراد بهم أمّته الّذين اتّبعوه . ويجوز أن يراد به جميع المؤمنين من الأمم ، ويكون ذلك فى عقائد التّوحيد وفيما وافق من شرائعهم[٣] .

إماما : الإمام : القدوة الّذى يؤتمّ به . ومنه قيل لخيط البناء إمام وللطريق إمام[٤] لأنّه يُؤَمُّ فيه للمسالك أى يُقصد . فالمعنى جاعلك للنّاس إمامًا يأتمّون بك فى هذه الخصال ويقتدى بك الصّالحون . فجعله الله تعالى إمامًا لأهل طاعته[٥] يُقْتدى به ويُحْتذى حذوه[٦] ويهتدى بهديه ويستنّ به[٧] .

ومن ذرّيّتى : عطف على الكاف كأنّه قال : وجاعل بعض ذرّيتى كما يقال لك : سأكرمك فتقول : وزيدًا[٨] والمراد بالذّرّيّة هنا الأبناء خاصّة . وقد تطلق على الآباء والأبناء ومنه قوله تعالى : ﴿ وآيةٌ لهم أنّا حملنا ذرّيّتهم ﴾ يعنى آباءهم[٩] وقال الخليل : إنّما سمّوا ذرّيّة لأنّ الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزّارع البذر[١٠] قال ابن عبّاس : سأل إبراهيم عليه السّلام أن يجعل من ذرّيّته إمامًا فأعلمه الله أنّ فى ذرّيّته من يعصى فقال : لا ينال عهدى الظّالمين[١١] والّذى يقتضيه المعنى أن يكون من ذرّيّتى متعلّقًا بمحذوف التّقدير واجعل من ذرّيّتى إمامًا ، لأنّ إبراهيم فهم من قوله : إنّى جاعلك للنّاس إمامًا الاختصاص ، فسأل الله تعالى أن يجعل من ذرّيّته إماما[١٢] .

لا ينال : لا يدرك . والنّيل الإدراك[١٣] .

عهدى : العهد : الإمامة[١٤] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٧٦
(٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٢ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٧٦
(٤) البحر المحيط ١ / ٣٧٢ .
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٣
(٦) تفسير ابن كثير ١ / ١٦٥ .
(٧) معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٦
(٨) الكشّاف ١ / ٢٣٦ .
(٩) تفسير القرطبى ص ٤٩٤
(١٠) تفسير القرطبى ص ٤٩٤ .
(١١) تفسير القرطبى ص ٤٩٣
(١٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٧
(١٣) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ .
(١٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٨ وتفسير القرطبىّ ص ٤٩٤ والكشاف ١ / ٢٣٦ والبحر المحيط ١ / ٣٧٧ .

الظّالمين : فسّر الظّلم هنا بالكفر ، وهو قول ابن جبير . وبظلم المعاصى غير الكفر وهو قول عطاء والسّدّى[١] .

استدلّ جماعةٌ من العلماء بهذه الآية على أنّ الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل مع القوّة على القيام بذلك . وهو الّذى أمر النّبىّ ﷺ ألاّ ينازعوا الأمر أهله[٢] فأمّا أهل الفسوق والجور والظّلم فليسوا له بأهل ، لقوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدى الظّالمين ﴾[٣] « والّذى عليه الأكثر من العلماء أنّ الصّبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ، لأنّ فى منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف[٤] وإراقة الدّماء وانطلاق أيدى السّفهاء وشنّ الغارات على المسلمين والفساد فى الأرض »[٥] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة قد ابتلى إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء وامتحنه واختبره بمجموعةٍ من الأوامر والنّواهى والتّكاليف فقام بها إبراهيم عليه السّلام امتثالاً لأمر ربّه جلّ وعلا خير قيام . قال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلماتٍ فأتمّهنّ ﴾ والمعنى واذكر يا محمّد إذ اختبر إبراهيم عليه السّلام ربّه جلّ وعلا بكلماتٍ فأتى بهنّ وقام بهن خير قيام . والمعروف أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى نسخ الدّينُ الّذى جاء به من عند ربّه جلّ وعلا هو أولى النّاس بالانتساب إلى إبراهيم عليه السّلام وقد قال عزّ من قائل[٦] : ﴿ إنّ أولى النّاسِ بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبىُّ والّذين آمنوا ، والله ولىّ المؤمنين ﴾ . وها هى ذى الآية الكريمة يتّجه فيها الخطاب أساسًا إلى المصطفى ﷺ أولى النّاس بإبراهيم ، وحُقّ له عليه الصّلاة والسّلام ذلك . والمعروف أنّ للمسلمين أسوةً حسنةً فى محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وفى إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء ، قال تعالى[٧] : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ . وقال تعالى[٨] : ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنة فى إبراهيم والّذين معه ﴾ وقال تعالى[٩]:

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٧٧ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٤ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٤ .

(٤) دخلت الباء خلافًا للرّأى المشهور على غير المتروك لأنّ المراد التّغيير .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٥ (٦) سورة آل عمران ٦٨ .

(٧) سورة الأحزاب ٢١ (٨) سورة الممتحنة ٤ .

(٩) سورة الممتحنة ٦ .

﴿ لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليومَ الآخر ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنيّ الحميد ﴾ والمعروف أنّ المصطفى ﷺ جاء بالحنيفيّة السّمحة دين أبينا إبراهيم عليه السّلام وقد قال تعالى[1] : ﴿ ثمّ أوحينا إليكَ أنِ اتّبعْ ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ وها هى ذى الآية الكريمة احتفاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين تخاطبه فى القول : ﴿ وإذ ابتلى ﴾ واحتفاءً بإبراهيم عليه السّلام ترفع من ذكره .

وتأمّل جملة « ابتلى » من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان . إنّ ربّ العزّة الّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه والّذى ليس للزّمن علاقةٌ بعلمه المطلق جلّ وعلا يصطفى إبراهيم عليه السّلام بضروبٍ من الابتلاء والاختبار والامتحان . وكانت عاقبة كلّ ذلك حميدةً فى حقّه عليه الصّلاة والسّلام . فها هى ذى الآية الكريمة تشير إلى مجموعة الأوامر والنّواهى والتّكاليف بلفظ الكلمات ، لأنّها صادرةٌ من ربّ العزّة ، وتشير إلى نجاح إبراهيم عليه السّلام الباهر فى ضروب الامتحان المختلفة . وهذا الامتحان وذلك النّجاح يذكّراننا بقوله تعالى[2] : ﴿ أم لم ينبّأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الّذى وفّى ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وليس بخافٍ أنّ ابتلاء الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام بقصد أن يعلم جلّ وعلا علم ظهور وهو الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء مدى إتمام إبراهيم عليه السّلام تلك التّكاليف ومجيئه بها على وجهها .

وإنّ فى تقديم المفعول به « إبراهيم » دليلاً على فرط الاهتمام وشدّ الانتباه إلى هذا الرّسول الأسوة . وانظر إلى لفظ الرّب الّذى جاء فاعلاً ولحق به ضمير الغائب العائد على المفعول به إبراهيم عليه السّلام « ربُّه » إنّ الّذى يجىء هنا لفظ الرّبّ وليس لفظ الجلالة « الله » والمعروف أنّ لفظ الرّبّ فى القرآن الكريم إنّما يستعمل حينما يكون الموقف أقرب إلى الخصوص ، وحينما يكون القصد شدّ الانتباه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه العظيمة وآلائه الجسيمة ، وحينما يكون المراد التّنبيه إلى وجوب قيام العباد بما يجب عليهم من شكرٍ

---

(١) سورة النّحل ١٢٣ .
(٢) سورة النّجم ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) سورة الأنعام ١٢٤ .

لله تعالى كفاء النّعم والآلاء ، وفى مقدّمة ما ينبغى القيام به عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له ، وحينما يكون الجوّ عابقًا بشذا المحبّة والحنان ، الرّضا والامتنان . إنّ كلّ هذه المعانى اللّطيفة تتنسّم شذاها ونحن أمام لفظة الرّب فى الآية الكريمة ، ممّا يفهم معه أنّ نعم الله تعالى الّتى لا تُحْصى على إبراهيم عليه السّلام آخذةٌ فى الزّيادة والنّماء ، وأنّ ابتلاء الله تعالى لإبراهيم عليه السّلام توطئة لفضلٍ من الله تعالى عليه عظيم وخيرٍ عميم .

وإنّ الجزئيّة الكريمة التّالية لتنصّ على ذلك الفضل العظيم والخير العميم : ﴿ قال إنّى جاعلك للنّاس إماما ﴾ وانظر إلى لفظة النّاس وانظر إلى لفظة الإمام . إنّ لفظة النّاس تعنى كلّ من هداهم الله تعالى إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم . وإنّ لفظة إمام تعنى أنّ إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة يأتمّ به المؤتمون ويقتدى المقتدون ويهتدى المهتدون ويستنّ به المستنّون . لقد تبيّنتَ فى الصّلاة اقتداء المؤتمين بالإمام ، فثمّة يتجلّى منتهى الطّاعة والامتثال والنّظام . وثمّة الخير كلّ الخير . إنّ إبراهيم عليه السّلام بمثابة الإمام لكلّ عباد الله تعالى الصّالحين . ألم يأمر ربّ العزّة فى محكم كتابه خاتم الأنبياء والمرسلين بالقول[1] : ﴿ ثمّ أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ بلى . وهكذا بعث الله تعالى محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين بدين الإسلام الممثّل للصّورة الأخيرة الكاملة من الحنيفيّة السّمحة دين أبينا إبراهيم عليه السّلام .

وانظر إلى فضل الله سبحانه وتعالى العظيم على إبراهيم عليه السّلام . إنّه جلّ وعلا يخبر خليله إبراهيم عليه السّلام بأنّه جاعله للنّاس إمامًا يهتدون به إلى كلّ خير وهو الّذى أكرمه الله تعالى بنعمة الرّسالة أكبر نعم الله تعالى على عبدٍ من عباده ، واصطفاه باتّخاذه خليلاً وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ ومَنْ أحسنُ دينًا ممّن أسلم وَجْهَهُ لله وهُو مُحْسِنٌ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا واتّخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وإنّ من تمام نعم الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام ممّا هو متمّمٌ لنعمة الإمامة الّتى عمادها الرّسالة ، أنّ ربّ العزّة قد جعل كلّ أنبيائه جلّ وعلا ورسله من ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام ، تمامًا كما كانت هذه النّعمة من قبل فى ذرّيّة نوحٍ عليه السّلام ، وقد قال تعالى[3] : ﴿ ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذرّيّتهما النّبوّة

---

(١) سورة النّحل ١٢٣ .
(٢) سورة النّساء ١٢٥ .
(٣) سورة الحديد ٢٦ .

والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ والمعروف أنّ كلّ الأنبياء والرّسل من ذرّية إسحاق وإسماعيل عليهما السّلام اللّذين باركهما الله تعالى كما بارك أباهما إبراهيم عليه السّلام وقد قال تعالى(١): ﴿ سلامٌ على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنّه من عبادنا المؤمنين . وبشّرناه بإسحاق نبيًّا من الصّالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ، ومن ذرّيّتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبين ﴾ وإذا كان كلّ أنبياء بنى إسرائيل من ذرّيّة إسحاق عليه السّلام فقد ادّخر الله تعالى نعمة ختم النّبوّة لدعوة إبراهيم عليه السّلام محمّد بن عبد الله ﷺ وهو النّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام . وهكذا ادّخر الله سبحانه وتعالى هذه النّعمة العظيمة للعرب أبناء إسماعيل عليه السّلام وخصّ بها أشرف الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ ، وصرف الله تعالى هذه النّعمة عن بنى إسرائيل الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفرًا وأحلّوا قومهم دار البوار . فعلى العرب الّذين هم مادّة المسلمين الأولى وعلى المسلمين جميعًا أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وأن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى عليها ، وإنّ طريق شكر الله تعالى أوضح من الشّمس فى رابعة النّهار ، وذلك بتطبيق تعاليم الكتاب العزيز وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين .

وما الّذى ينتظر من إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب الأب البرّ الرّحيم وقد أكرمه ربّه جلّ وعلا بهذه البشارة العظيمة ؟ أن يتذكّر المأمومين ، أن يتذكّر أبناءه وذرّيّته . وها هو ذا عليه الصّلاة والسّلام يبادر إلى دعاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل من ذرّيّته أئمّة يهدون بأمره جلّ وعلا قال تعالى : ﴿ قال إنّى جاعلك للنّاس إمامًا قال ومن ذرّيّتى ﴾ والمعنى : واجعل من ذرّيّتى إمامًا أو أئمّة . ولمّا كان من ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام المؤمنون المهتدون ، والظّالمون الفاسقون ، فليسوا كلّهم مؤمنين مهتدين كما تمنّى إبراهيم عليه السّلام ، فقد بيّن ربّ العزّة أنّ عهده بالإمامة لن ينال الظّالمين ، الّذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الآخرين ، ويتفاوت الظّلم بين وضع الشّىء فى غير موضعه ابتداءً وبين الإشراك مع الله تعالى غيره انتهاءً وهو الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا وقد قال عزّ من قائل(٢) : ﴿ إنّ الشّرك لظلمٌ عظيم ﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به

---

(١) سورة الصّافّات ١٠٩ ــ ١١٣ .
(٢) سورة لقمان ١٣ .
(٣) سورة النّساء ٤٨ ، ١١٦ .

ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ قال عزّ من قائل : ﴿ لا ينال عهدى الظّالمين ﴾ ويفهم من هذا القول أنّ عهد الله تعالى بالإمامة ينال غير الظّالمين . والمعروف أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل فى ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام النّبوّة والكتاب . قال تعالى[١] : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذرّيّته النّبوّة والكتاب وآتيناه أجره فى الدّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين ﴾ والمعروف أنّ ربّ العزّة قد ادّخر أعظم عهد بالإمامة لخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ ، وهو النّبىّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما أزكى صلاة وأتمّ تسليم .

الآيــة رقــم (١٢٥)

قال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للنّاس وأمْنًا واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى . وعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتَى للّطائفين والعاكفين والرّكّع السّجود ﴾ .

وإذ جعلنا : معطوف على : وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات[٢] .

وجعلنا هنا بمعنى صيّرنا . فمثابةً مفعول ثانٍ[٣] .

البيت : يعنى الكعبة[٤] وصار علمًا بالغلبة على الكعبة كالنّجم للثّريّا[٥] وهذا هو رأى الجمهور[٦] وقيل : المراد البيت الحرام[٧] لا نفس الكعبة لأنّه وصفه بالأمن . وهذه صفة جميع الحرم لا صفة الكعبة فقط . ويجوز إطلاق البيت ويراد به كلّ الحرم . وأمّا الكعبة فلا تطلق إلاّ على البناء الّذى يطاف به ولا تطلق على كلّ الحرم[٨] .

مثابة : « أصل الثّوب رجوعُ الشّىء إلى حالته الأولى الّتى كان عليها ، أو إلى الحالة المقدّرة المقصودة بالفكرة وهى الحالة المشارُ إليها بقولهم : أوّل الفكرة آخِرُ العمل ، فَمِنَ

---

(١) سورة العنكبوت ٢٧ (٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٩ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٨٠ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٦ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ (٦) البحر المحيط ١ / ٣٧٩ .
(٧) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٩ والبحر المحيط ١ / ٣٧٩ . (٨) البحر المحيط ١ / ٣٧٩ .

الرّجوع إلى الحالة الأولى قولُهُمْ : ثاب فلانٌ إلى داره وثابَتْ إلَيَّ نفسى . وسمّى مكان المستسقِي على فم البئر مثابةً . ومن الرّجوع إلى الحالة المقدَّرة المقصودة بالفكرة الثّوب ، سمّى بذلك لرجوع الغَزْل إلى الحالة الّتى قدِّرتْ له ، وكذا ثواب العَمَل »[١] « والمثابة : مفعلة من ثاب القوم إلى الموضع إذا رجعوا إليه فهم يثوبون إليه مثابًا ومثابةً وثوابًا »[٢] فالمثابة مصدر وصف به ويراد به الموضع الّذى يثاب إليه أى يُرْجع إليه[٣] وأهل العربيّة مختلفون فى السّبب الّذى من أجله أنّثت المثابة ، فقال بعض نحويّي البصرة : ألحقت الهاء للمبالغة لكثرة من يثوب إليه أى يرجع ، لأنّه قلّ ما يفارق أحدٌ البيت إلاّ وهو يرى أنّه لم يقض منه وطرا فهى كنسّابة وعلاّمة[٤] يقول مثلاً الأخفش البصرىّ[٥] : « وألحقت الهاء فى المثابة لمّا كثر من يثوب إليه ، كما تقول : نسّابة وسيّارة ، لمن يكثر ذلك منه » « وقال بعض نحويّي الكوفة : بل المثاب والمثابة بمعنًى واحد ، نظيره المقام والمقامة . والمقامُ ذكّرِ على قوله لأنّه يريد به الموضع الّذى يقام فيه ، وأنّثت المقامة لأنّه أريد بها البُقْعة . وأنكر هؤلاء أن تكون المثابة كالسّيّارة والنّسّابة وقالوا : إنّما أدخلت الهاء فى السّيّارة والنّسّابة تشبيهًا لها بالدّاعية »[٦] فالهاء لتأنيث المصدر وليست للمبالغة[٧] يقول مثلاً الفرّاء الكوفىّ[٨] : « ... مثابةً للنّاس : يثوبون إليه — من المثابة والمثاب . أراد : من كلّ مكان . والمثابة فى كلام العرب كالواحد ، مثل المقام والمقامة » .

وأمنًا : الأمن مصدر من قول القائل : أمن يأمن أمنًا[٩] إذا لم يخف واطمأنّت نفسه[١٠] جعل البيت إيّاه على سبيل المبالغة لكثرة ما يقع به من الأمن[١١] معناه أنّ النّاس كانوا يقتتلون ويغير بعضهم على بعض حول مكّة وهى آمنةٌ من ذلك . ويلقى الرّجل قاتل

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفانىّ ص ٨٣ (٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٩ .
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٦
(٤) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٩ وتفسير القرطبىّ ص ٤٩٦ .
(٥) معانى القرآن ١ / ١٤٦ . (٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤١٩ .
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٦ (٨) معانى القرآن ١ / ٧٦ .
(٩) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٠ والبحر المحيط ١ / ٣٧٣ و ٣٨٠ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ (١١) البحر المحيط ١ / ٣٨٠ .

أبيه فلا يهيجه لأنّه تعالى جعل لها فى النّفوس حرمةً وجعلها أمنًا للنّاس والطّير والوحش إلاّ الخمس الفواسق[١] وقد وردت أحاديث تدلّ على أنّ الله تعالى حرّم مكّة قبل خلق السّماوات والأرض كما جاء فى الصّحيحين عن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكّة : إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السّماوات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنّه لم يحلّ القتال فيه لأحدٍ قبلى و لم يحلّ لى إلاّ ساعةً من نهار ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد[٢] شوكه ، ولا ينفّر[٣] صيده ، ولا يلتقط لقطته[٤] إلاّ من عرّفها ، ولا يختلى[٥] خلاه . فقال العبّاس : يا رسول الله إلاّ الإذخر[٦] فإنّه لقينهم[٧] ولبيوتهم فقال إلاّ الإذخر . وهذا لفظ مسلم[٨] وروى ابن ماجة عن صفيّة بنت شيبة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح فقال : يا أيّها النّاس إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السّماوات والأرض فهى حرامٌ إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجرها ، ولا ينفّر صيدها . ولا يأخذ لقطتها إلاّ مُنْشد . فقال العبّاس : إلاّ الإذْخر فإنّه للبيوت والقبور فقال رسول الله ﷺ إلاّ . الإذخر[٩] .

وقد أجمعوا أنّه لو قتل فى الحرم قتل به ، ولو أتى حدًّا أقيد منه فيه ، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه[١٠] .

واتّخدوا : قرأ جمهور القرّاء : واتّخذوا ، بكسر الخاء على جهة الأمر ، قطعوه من الأوّل وجعلوه معطوفًا جملةً على جملة[١١] .

والمقام مَفْعل من القيام ، يراد به المكان أى مكان قيامه ، وهو الحجر الّذى ارتفع عليه

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٨٠ (٢) لا يقطع والعضد القطع .

(٣) لا يُزْعج ولا يُنَحّى من موضعه .

(٤) اللّقطة بفتح القاف على اللّغة المشهورة وقيل بإسكانها وهى الملقوط .

(٥) لا يؤخذ ولا يُقْطع . والخلا بفتح الخاء المعجمة مقصور هو الرّطب من الكلأ .

(٦) بنت طيّب الرّائحة وهو بكسر الهمزة والخاء .

(٧) بفتح القاف هو الحدّاد والصّائغ للحاجة إليه فى وقود النّار وفى سقوف البيوت يجعل فوق الخشب .

(٨) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٤ والشّرح مأخوذ من صحيح مسلم بشرح النّووىّ ٧ / ١٢٥ .

(٩) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٤ (١٠) تفسير القرطبىّ ٤٩٧ :

(١١) تفسير القرطبى ص ٤٩٧ وانظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢١ .

إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة الّتى كان إسماعيل يناوله إيّاها فى بناء البيت وغرقت قدماه فيه ، قاله ابن عبّاس وجابر وقتادة وغيرهم وخرّجه البخارىّ . وهو الآن موضع ذلك الحجر المسمّى مقام إبراهيم . وعن عمر أنّه سأل المطّلب بن أبى وداعة[١] هل تدرى أين كان موضعه الأول ؟ قال نعم فأراه موضعه اليوم . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه غير أنّه أذهبه مسح النّاس بأيديهم[٢] ويقول القرطبىّ[٣] : « المقام فى اللّغة موضع القدمين . قال النّحّاس : مقام من قام يقوم ، يكون مصدرًا واسمًا للموضع . ومُقام من أقام ..... واختلف فى تعيين المقام على أقوال أصحّها أنّه الحجر الّذى تعرفه النّاس اليوم ، الّذى يصلّون عنده ركعتى طواف القدوم . وهذا قول جابر بن عبد الله وابن عبّاس وقتادة وغيرهم . وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطّويل أنّ النّبىّ ﷺ لمّا رأى البيت استلم الرّكن فرمل ثلاثًا ومشى أربعًا ثمّ تقدّم إلى مقام إبراهيم فقرأ : واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى . فصلّى ركعتين قرأ فيهما بـ : قل هو الله أحد ، و : قل يا أيّها الكافرون . وهذا يدلّ على أنّ ركعتى الطّواف وغيرهما من الصّلوات لأهل مكّة أفضل ويدلّ من وجهٍ على أنّ الطّواف للغرباء أفضل .... وفى البخارىّ أنّه الحجر الّذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة الّتى كان إسماعيل يناولها إيّاه فى بناء البيت وغرقت قدماه فيه . قال أنس : رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه غير أنّه أذهبه مسح النّاس بأيديهم . حكاه القشيرىّ ..... قلت : والصّحيح فى المقام القول الأوّل حسب ما ثبت فى الصّحيح » .

« روى ابن عمر قال . قال عمر : وافقت ربّى فى ثلاث . فى مقام إبراهيم . وفى الحجاب . وفى أسارى بدر . خرّجه مسلم وغيره . وخرّجه البخارىّ عن أنس قال . قال عمر : وافقت الله فى ثلاث ، أو وافقنى ربّى فى ثلاث . الحديث . وأخرجه أبو داود الطّيالسىّ فى مسنده فقال : حدّثنا حمّاد بن سلمة حدّثنا علىّ بن زيد عن أنس بن مالك قال . قال عمر : وافقت ربّى فى أربع . قلت : يا رسول الله : لوصلّيت خلف المقام فنزلت

---

(١) هذه رواية الكشّاف ١ / ٤٣٧ وتفسير ابن كثير ١ / ١٧٦ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣١ وفى البحر المحيط « رفاعة » .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٨١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٨ .

هذه الآية : ﴿ واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى ﴾ . وقلت : يا رسول الله ، لو ضربت على نسائك الحجاب فإنّه يدخل عليهنّ البرّ والفاجر فأنزل الله : وإذا سألتموهنّ متاعًا فاسألوهنّ من وراء حجاب . ونزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين ﴾ . فلمّا نزلت قلت أنا : تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . ودخلت على أزواج النّبيّ ﷺ فقلت : لتنتهنّ أو ليبدّلنّه الله بأزواجٍ خيرٍ منكنّ فنزلت الآية : ﴿ عسى ربّه إن طلّقكنّ ﴾ .

قلت : ليس فى هذه الرّواية ذكرٌ للأسارى فتكون موافقة عمر فى خمس »[1] .

ويعلّق ابن كثير على الرّوايات الكثيرة بشأن مقام إبراهيم بالقول[2] : « فهذا كلّه ممّا يدلّ على أنّ المراد بالمقام إنّما هو الحجر الّذى كان إبراهيم عليه السّلام يقوم عليه لبناء الكعبة لمّا ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السّلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار . وكلّما كمّل ناحية انتقل إلى النّاحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقفٌ عليه كلّما فرغ من جدارٍ نقله إلى النّاحية الّتى تليها وهكذا حتّى تمّ جدران الكعبة .... وكانت آثار قدميه ظاهرةً فيه ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب فى جاهليّتها .... وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا » ويضيف ابن كثير[3] : « قلت : وقد كان هذا المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا ومكانه معروفٌ اليوم إلى جانب الباب ممّا يلى الحجر يمنة الدّاخل من الباب فى البقعة المستقلّة هناك . وكان الخليل عليه السّلام لمّا فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنّه انتهى عنده البناء فتركه هناك . ولهذا والله أعلم أمر بالصّلاة هناك عند الفراغ من الطّواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه . وإنّما أخّره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضى الله عنه

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٧ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٨١ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢١ وتفسير ابن كثير ١ / ١٦٩ وفى ص ١٧٠ الموافقة بشأن عبد الله بن أبىّ لمّا مات وجاء النبىّ ﷺ ليصلّى عليه فقال عمر : يا رسول الله تصلّى على هذا الكافر المنافق؟ وقد نزل فى الموافقة قوله تعالى : ﴿ ولا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره ﴾ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٠ وانظر البحر المحيط ١ / ٣٨١ فهذا هو رأى أبى حيّان .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٠ .

أحد الأئمّة المهديّين والخلفاء الرّاشدين الّذين أمرنا باتّباعهم وهو أحد الرّجلين اللّذين قال فيهما رسول الله ﷺ : اقتدوا باللّذين من بعدى أبى بكر وعمر ، وهو الّذى نزل القرآن بوفاقه فى الصّلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحدٌ من الصّحابة رضى الله عنهم أجمعين » « عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنّ المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقًا بالبيت ثمّ أخّره عمر بن الخطّاب رضى الله عنه . وهذا إسنادٌ صحيحٌ مع ما تقدّم »[١] « قال سفيان يعنى ابن عيينة ، وهو إمام المكّيّين فى زمانه : كان المقام من سَفْع[٢] البيت على عهد رسول الله ﷺ فحوّله عمر إلى مكانه بعد النّبىّ ﷺ »[٣] ويقول أبو حيّان[٤] تأكيدًا لرأيه بأنّ المقام هو الحجر : « واتّفق المحقّقون على القول الأوّل ، ورجح بحديث عمر أفلا نتّخذه مصلّى ؟ الحديث . وبقراءة رسول الله ﷺ لمّا فرغ من الطّواف وأتى المقام : واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى . فدلّ على أنّ المراد منه ذلك الموضع ولأنّ هذا الاسم فى العرف مختصٌّ بذلك الموضع ، ولأنّ الحجر صار تحت قدميه فى رطوبة الطّين حين غاصت فيه رجلاه . وفى ذلك معجزةٌ له فكان اختصاصه به أقوى من اختصاص غيره ، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى ولأنّ المقام هو موضع القيام ، وثبت قيامه على الحجر ولم يثبت على غيره » .

مصلّى : موضع صلاة . قاله قتادة[٥] وذلك بأن تصلّوا خلفه ركعتى الطّواف[٦] والأمر على وجه الاختيار والاستحباب دون الوجوب[٧] .

وعهدنا : يقال : عَهِد فلانٌ إلى فلانٍ يَعْهَدُ أى ألقى إليه العَهْدَ وأوصاه بحفظه[٨] والعَهْد حفظ الشّىء ومراعاته حالاً بعد حال . وسمّى الموثق الّذى يلزم مراعاته عهدًا[٩]

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٧١ (٢) السّفع ، بفتح السّين : الثّوب المصبوغ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٧١ (٤) البحر المحيط ١ / ٣٨١ .
(٥) البحر المحيط ١ / ٣٨١ وتفسير القرطبى ص ٤٩٩ .
(٦) الجلالين (٧) الكشّاف ١ / ٢٣٧ .
(٨ و ٩) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٥٠ .

وعهد الله تارةً يكون بما رَكَزَه فى عقولنا ، وتارةً يكون بما أَمَرَنا به بالكتاب وبالسّنّة رُسُلُهْ ، وتارةً بما نلتزمه وليس بلازمٍ فى أصل الشّرع كالنّذور وما يجرى مجراها[١] ومعنى عهدنا هنا : أمرنا[٢] والظّاهر أنّ هذا الحرف إنّما عدّى بإلى لأنّه فى معنى تقدّمنا وأوحينا[٣] .

أن طهّرا : أن فى موضع نصب على تقدير حذف الخافض « بأن »[٤] .

بيتى : أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريفٍ وتكريم ، وهى إضافة مخلوقٍ إلى خالق ومملوكٍ إلى مالك . وقرأ الحسن وابن أبى إسحاق وأهل المدينة وهشام وحفص : بيتى بفتح الياء . والآخرون بإسكانها[٥] .

للطّائفين : الطّائف : اسم فاعل من طاف به إذا دار به[٦] وظاهره أنّه كلّ من يطوف به من حاضرٍ أو باد . قاله عطاء وغيره[٧] وقد رجّح الطّبرىّ رأى عطاءٍ هذا[٨] .

والعاكفين : المقيمين من بلدىّ وغريب . عن عطاء[٩] والعكوف فى اللّغة اللّزوم والإقبال على الشّىء[١٠] وقال :

عليه الطّير ترقبه عكوفا

وقال : يعكفون على أصنامٍ لهم أى يقيمون على عبادتها[١١] .

وإنّما قيل للمعتكف معتكف من أجل مقامه فى الموضع الّذى حبس فيه نفسه لله تعالى[١٢] عن عطاء قال : إذا كان طائفًا بالبيت فهو من الطّائفين وإذا كان جالسًا فهو من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٣٥٠ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٩ والكشّاف ١ / ٢٣٧ والبحر المحيط ١ / ٣٨١ وتفسير الطبرىّ ١ / ٤٢٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ١ / ١٧١ .

(٤) انظر تفسير القرطبىّ ص ٤٩٩ والكشّاف ١ / ٢٣٧ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٤٩٩ (٦) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ .

(٧) انظر البحر المحيط ١ / ٣٨٢ وتفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ وتفسير الطبرىّ ١ / ٤٢٤ .

(٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٤ (٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ .

(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ (١١) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ .

(١٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٤ .

العاكفين[١] وقد رجّح الطّبرىّ رأى عطاء[٢] .

والرّكّع السّجود : أى المصلّون عند الكعبة ، قاله عطاء وغيره[٣] وخصّ الرّكوع والسّجود بالذّكر لأنّهما أقرب أحوال المصلّى إلى الله تعالى[٤] وقدّم الرّكوع على السّجود لتقدّمه عليه فى الزّمان[٥] « والرّكّع جماعة القوم الرّاكعين فيه له ، واحدهم راكع . وكذلك السّجود هم جماعة القوم السّاجدين فيه له ، واحدهم ساجد ، كما يقال : رجلٌ قاعد ورجالٌ قعود ، ورجلٌ جالس ورجالٌ جلوس فكذلك رجلٌ ساجدٌ ورجالٌ سجود »[٦] .

وأوّل ما يلاحظ على الآية الكريمة الثّانية فى هذا القسم والّتى تجىء عقب نجاح إبراهيم فى الامتحان وجعله للنّاس إمامًا أنّها ذات علاقةٍ بركنين من أركان الإسلام الخامس والثّانى ، الحجّ إلى بيت الله الحرام والصّلاة ، ثمّ يتحوّل السّياق إلى الحديث فى موضوعاتٍ أخرى ، منها ما هو سابق على جعل البيت مثابةً للنّاس وأمنًا كبناء البيت الحرام .

تبدأ الآية الكريمة كما بدأت الآية الكريمة السّابقة وكما تبدأ آيتان كريمتان لاحقتان بالقول : « وإذ » وهذه البداية تذكّرنا بالآيات الكريمات السّابقات الّتى تتحدّث عن بنى إسرائيل فكلّ آيةٍ تشير إلى نعمةٍ من تلك النّعم وإلى معنًى جديد تبدأ بالقول : « وإذ » والمعنى هنا كما هو فى الآية الكريمة السّابقة : واذكر يا محمّد . وإذ هنا معطوفةٌ على أختها فى الآية الكريمة السّابقة . والآية الكريمة ذات علاقةٍ بإبراهيم عليه السّلام وابنه إسماعيل عليه السّلام وبالبيت العتيق .

والملاحظ أنّ المحور الّذى تدور حوله آيات هذا القسم من السّورة هو إبراهيم عليه السّلام . والآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ إذ جعل ربّ العزّة الّذى تجىء الإشارة إليه بنون العظمة وذلك فى القول ﴿ وإذ جعلنا ﴾ إذ جعل ربّ العزّة البيت العتيق مثابةً للنّاس

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٤ (٢) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٤ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٨٢ وتفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ والبحر المحيط ١ / ٣٨٢ .

(٥) البحر المحيط ١ / ٣٨٢ (٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٤ .

وأمنًا . وإذا كان البيت يطلق على الكعبة المشرّفة وكان الأمن شاملاً لكلٍّ من البيت العتيق ولكلّ الحرم ، فمعنى هذا أنّ لفظ البيت هنا شاملٌ للبيت العتيق ولسائر الحرم . لقد جعل الله سبحانه وتعالى البيت العتيق مثابةً لكلّ النّاس وأمنًا لهم وطمأنينة إنّ النّاس جميعًا المسلمين لله ربّ العالمين بخاصّةٍ بعد أن بعث الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين يثوبون إلى هذا البيت العتيق ويرجعون إليه لأنهم يشعرون فى أعماقهم بأنّهم لم يقضوا منه وطرا ، ويعودون إليه لأنّهم يتبيّنون أنّهم لم يشفوا منه غليلا . وحينما نتبيّن أنّ من معانى المثابة مكان المستسقِى على فم البئر ، ونتمثّل بيئة مكّة المكرّمة القاحلة الجرداء ، ونقف على حقيقة الوادى غير ذى الزّرع والجبال المحيطة به الّتى ليس عليها من دلائل الخضرة شىء ، يتبادر إلى أذهاننا إقبال النّاس الشديد على مظانّ المياه وتكالبهم من أجل حصولهم منها على ما يطفىء غُلَّتَهُمْ . إنّ هذه هى حال كلّ عباد الله تعالى فى إقبالهم الشّديد على البيت العتيق من أجل الحجّ والعمرة والطّواف فيه والصّلاة وما إلى ذلك . ومع خلوّ منطقة الحرم وما جاورها من كلّ المغريات الدّنيويّة ، ومن مظاهر ذلك كون البيت العتيق بوادٍ غير ذى زرعٍ ، ومن باب أولى ما جاوره من غير الأودية ، فقد جعل الله تعالى البيت العتيق والحرم كلّه هو الأمن كلّ الأمن . وإذا كان العرب قبل الإسلام ، وهم فى جاهليّتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء يجدون كلّ الأمن فى البيت العتيق والحرم الشّريف ، بحيث إنّ العربىّ الجاهلىّ يرى فى الحرم قاتل أبيه فلا يتعرّض له بأذًى إكبارًا منه لحرمة البيت العتيق وتحقيقًا للأمن الّذى جعله الله تعالى حظًّا للبيت العتيق ونصيبًا للحرم الشّريف ، فمن باب أولى أن يتحقّق الأمن كما تتحقّق المثابة بعد بعثة المصطفى ﷺ وقد حيل بين المشركين لأنّهم نجس وبين مجرّد الاقتراب من المسجد الحرام بعد نزول قوله تعالى من سورة براءة[1] وهى من آخر ما نزل من القرآن : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إنّما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء . إنّ الله عليمٌ حكيم ﴾ .

وفى القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمات الّتى تقرّر فضل الله تعالى على النّاس

---

(١) الآية ٢٨ .

بجعل الحرم آمنًا بينما يتخطّف النّاس من حولهم . وهذه الحقيقة يتبيّنها النّاس فى كلّ زمان . ومن هذه الآيات الكريمات قوله تعالى[١] : ﴿ أو لم نمكّن لهم حَرَمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ رزقًا من لدنّا ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقوله تعالى[٢] : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أنّا جعلنا حَرَمًا آمنًا وَيُتَخَطَّفُ النّاس من حولهم . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ وانظر إلى دعوة إبراهيم عليه السّلام ربّه أن يجعل هذا البلد آمنًا وأن يجعل أفئدةً من النّاس تهوى إليه ، وانظر إلى لفظة الأفئدة ، وانظر إلى جملة تهوى ، وأن يرزق جلّ وعلا سكّان الوادى غير ذى الزّرع من الثّمرات لعلّهم يشكرون . قال تعالى[٣] : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنًا واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام . ربّ إنّهنّ أضللن كثيرًا من النّاس فمن تبعنى فإنّه منّى ومن عصانى فإنّك غفورٌ رحيم . ربّنا إنّى أسكنت من ذرّيّتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدةً من النّاس تهوى إليهم وارزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون ﴾ .

أما وقد ثاب النّاس إلى البيت العتيق ووجدوا فيه الأمن الّذى ينشدون وأكرمهم الله تعالى بأن حقّق لهم أمنيّة الطّواف بالبيت العتيق ، فالمطلوب من هؤلاء المسلمين المؤمنين المتّقين الزّائرين للبيت العتيق الطّائفين أن يتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى . وإذا كان مقام إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام هو الحجر أساسًا ، فإنّ المقام اتّسع معناه كى يشمل موضع الحجر بسبب الجوار والملازمة . إنّ المسلمين مأمورون بأن يتّخذوا من مقام إبراهيم عليه السّلام موضعًا للصّلاة ، وبخاصّة ركعتا الطّواف .

وهذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن بعض متعلّقات البيت العتيق وقد تمّ بناؤه ، تبيّن فى جزئيّتها الأخيرة أنّ الله سبحانه وتعالى قد أمر إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السّلام وأوحى إليهما وعهد ﴿ أن طهّرا بيتى للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود ﴾ ونستطيع أن نفهم من جملة ﴿ وعهدنا ﴾ معنى العهد ، بمعنى حفظ الشّىء ومراعاته ، ومعنى متابعة الحفظ والاستمرار فيه ، ومعنى نزول الأمر المطلوب مراعاته منزلة العهد والموثق

---

(١) سورة القصص ٥٧ .

(٢) سورة العنكبوت ٦٧ .

(٣) سورة إبراهيم ٣٥ — ٣٧ .

اللّذين يلزم مراعاتهما . إنّ كلّ هذه المعانى نفهمها من القول : ﴿ وعهدنا ﴾ وقد عرفنا بسبب تعدّى الفعل بحرف الجرّ إلى ، أنّه يتضمّن معنى الإيحاء . وهذا معنًى جديدٌ تكتسبه جملة عهدنا بسبب التّعدّى بحرف الجرّ إلى ، إضافةً إلى المعانى السّابقة . وقد اصطلح المفسّرون على إعطاء جملة « عهدنا » معنًى أوّليًا فهى بمعنى « أمرنا » ولنون العظمة دورٌ فى إبراز معنى الأمر وتقويته وتبيين أبعاده .

لقد عهد الله تعالى إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام بأن يطهّرا بيته جلّ وعلا العتيق للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود من كلّ ما لا يليق بالبيت العتيق ولا بأىّ بيتٍ من بيوته جلّ وعلا الّتى أضيفت إليه تعالى إضافة تشريف وتكريم . وإنّ هذا التّطهير شاملٌ لكلّ ما ينبغى تخليص بيوت الله تعالى منه ابتداءً بالأصنام والمعروف مثلاً أنّ المصطفى ﷺ حينما فتح مكّة طهّر البيت العتيق من الأصنام وانتهاءً بأبسط الأمور الّتى ينبغى تخليص كلّ بيتٍ من بيوت الله تعالى منها . « وتطهير المساجد مأخوذٌ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى ﴿ فى بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال ﴾ ومن السّنّة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنّجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه السّلام : إنّما بنيت المساجد لما بنيت له »[1] .

وقد تمّ النّصّ على الطّائفين أوّلاً من بين الفئات الّتى نصّت عليها الآية الكريمة والّتى يتمّ تطهير المساجد من أجلها . والمعروف أنّ الطّواف حالةٌ خاصّةٌ بالبيت العتيق بينما الحالات الأخر المذكورة فى الآية الكريمة شركةٌ بين المساجد كلّها . والطّائفون يدخل فيهم من يطوف بالبيت العتيق من حاضر وباد ، من أهل الحرم ومن سواهم .

و تنصّ الآية الكريمة على العاكفين بعد النّصّ على الطّائفين . والمراد بالعاكفين الملازمون للمسجد الحرام من حاضرٍ وباد .

وتنصّ الآية الكريمة أخيرًا على المصلّين ، وتختار حالتين من حالات الصّلاة بارزتين لما يقترن بهما من حركة وسكون ، مرتّبتين وفق ترتيبهما فى الصّلاة ، فالرّكوع أوّلاً يليه

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٧٢ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٠٠ .

السّجود . والمعروف أنّ العبد أقرب ما يكون من ربّه جلّ وعلا وهو ساجد ، والرّكوع قريبٌ من السّجود وقرينه . وكأنّ الآية الكريمة اختارت من بين حالات الصّلاة هاتين الحالتين لتميّزهما بصفات وخصائص .

ولأبى حيّان اجتهادٌ لطيفٌ بشأن نظم الجزئيّة الأخيرة : ﴿ أن طهّرا بيتى للطّائفين والعاكفين والرّكّع السّجود ﴾ يقول رحمه الله تعالى[1] : ﴿ وقدّم الرّكوع على السّجود لتقدّمه عليه فى الزّمان . وجمعا جمع تكسيرٍ لمقابلتهما ما قبلهما من جمعى السّلامة فكان ذلك تنويعًا فى الفصاحة . وخالف بين وزنىْ تكسيرهما تنويعًا فى الفصاحة أيضًا . وكان آخرهما على فعول لا على فُعَّل لأجل كونها فاصلة ، والفواصل قبلها وبعدها آخرها قبله حرف مدّ ولين . وعُطِفَتْ تينك الصّفتان لفرط التّباين بينهما بأىّ تفسيرٍ فسّرتهما ممّا سبق . ولم يعطف السّجود على الرّكوع لأنّ المقصود بهما المصلّون . والرّكّع والسّجود وإن اختلفت هيآتهما فيشملهما فعلٌ واحدٌ وهو الصّلاة . فالمراد بالرّكّع السّجود المصلّون ، فناسب ألاّ يعطف لئلاّ يتوهّم أنّ كلّ واحدٍ منهما عبارةٌ عن حيالها وليستا مجتمعتين فى عبادةٍ واحدة وليس كذلك ﴾ .

وقد استنتج العلماء أحكامًا من الآية الكريمة . ونودّ أن نقتبس بعض ما كتبه القرطبىّ[2] : « استدلّ الشّافعىّ وأبو حنيفة والثّورىّ وجماعة من السّلف بهذه الآية على جواز الصّلاة الفرض والنّفل داخل البيت . قال الشّافعىّ رحمه الله : إن صلّى فى جوفها مستقبلاً حائطًا من حيطانها فصلاته جائزة . وإن صلّى نحو الباب والباب مفتوحٌ فصلاته باطلة . وكذلك من صلّى على ظهرها لأنّه لم يستقبل منها شيئًا . وقال مالك : لا يُصَلَّى فيه الفرض ولا السُّنن ، ويصلّى فيه التّطوّع . غير أنّه إن صلّى فيه الفرض أعاد فى الوقت . وقال أصبغ : يعيد أبدا .

قلت : وهو الصّحيح ، لما رواه مسلم عن ابن عبّاس قال : أخبرنى أسامة بن زيد أنّ النّبىّ ﷺ لمّا دخل البيت دعا فى نواحيه كلّها و لم يصلّ حتّى خرج منه ، فلمّا خرج ركع قِبَل الكعبة ركعتين وقال : هذه القبلة ، وهذا نصّ ..... وقد روى مجاهد عن عبد الله

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٨٢ (٢) تفسير القرطبى ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

ابن صفوان قال : قلت لعمر بن الخطّاب : كيف صنع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة ؟ قال : صلّى ركعتين .

قلنا : هذا محمولٌ على النّافلة . ولا نعلم خلافًا بين العلماء فى صحّة النّافلة فى الكعبة . وأمّا الفرض فلا ، لأنّ الله تعالى عيّن الجهة بقوله تعالى : ﴿ فولّوا وجوهكم شَطره ﴾ .... وقوله ﷺ لمّا خرج : هذه القبلة فعيّنها كما عيّنها الله تعالى . ولو كان الفرض يصحّ داخلها لما قال : هذه القبلة . وبهذا يصحّ الجمع بين الأحاديث .....

واختلفوا أيضًا أيّما أفضل : الصّلاة عند البيت أو الطّواف به ؟ فقال مالك : الطّواف لأهل الأمصار أفضل . والصّلاة لأهل مكّة أفضل . وذكر عن ابن عبّاس وعطاء ومجاهد : والجمهور أنّ الصّلاة أفضل ..... والأخبار فى فضل الصّلاة والسّجود كثيرة تشهد لقول الجمهور ، والله أعلم » .

الآيــة رقــم (١٢٦)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتّعه قليلاً ثم أضطرّه إلى عذاب النّار وبئس المصير ﴾ .

﴿ قال ومن كفر ﴾ : يحتمل أن تكون من فى موضع رفعٍ على الابتداء ، إمّا موصولاً وإمّا شرطًا والفاء جواب الشّرط ... ويجوز أن تكون من شرطيّة والفاء جوابها[1] .

﴿ ثمّ أضطرّه ﴾ : الاضطرار هو الإلجاء إلى الشّىء والإكراه عليه وهو افتعل من الضّرّ ، أصله اضترار ، أبدلت التّاء طاءً بدلاً لازمًا . وفعله متعدٍ وعلى ذلك استعماله فى القرآن وفى كلام العرب[2] .

إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب ، وقد فهم أنّ من ذرّيّته من سيكون ظالمًا فلن

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٨٤ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٠٤ والكشّاف ١ / ٢٣٧ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٣ .

يناله عهد الله تعالى بالإمامة ، يدعو ربّه جلّ وعلا أن يرزق من آمن بالله واليوم الآخر من أهل البلد الحرام وجيران البيت العتيق من الثّمرات ، وبناءً على ذلك يكون إبراهيم عليه السّلام قد أخرج من دائرة دعائه الّذين أخرجهم الله تعالى من دائرة العهد بالإمامة فى الدّين أساسًا وهم الظّالمون .

وفى هذه الآية الكريمة يدعو إبراهيم عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يحقّق للبلد الحرام وأهله أكبر نعمتين من نعمه جلّ وعلا على بلدٍ من بلاده تعالى ، وهما نعمة الأمن من الخوف ونعمة الإطعام من الجوع ، وحول هذين المعنيين تدور سورة قريش . قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشّتاء والصّيف . فليعبدوا ربَّ هذا البيت . الّذى أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ﴾ .

وعلى غرار الآيتين الكريمتين السّابقتين تبدأ الآية الكريمة بالقول : « وإذ » فلا زال الخطاب متّجهًا إلى المصطفى ﷺ ، ولا زال المعنى : واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا . ولا زلنا كذلك أمام لفظة ربّ الّتى تبيّنّا بشأنها ارتباطها الشّديد بمواقف الخصوص والتّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بالنّعم والآلاء ، والّتى تبيّنّا بشأنها كذلك قدرتها على إشاعة جوّ الرّضا والاطمئنان وإذاعتها شذا البشر والحبور .

وإنّ هذه الصّيغة على لسان إبراهيم عليه السّلام : ﴿ ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا ﴾ تقذف إلى أذهاننا بالصّيغة الأخرى المشابهة على لسان إبراهيم عليه السّلام ، فى صيغة التّعريف هذه المرّة وذلك فى السّورة الّتى تحمل اسم إبراهيم عليه السّلام . قال تعالى[1] : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمنًا واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ﴾ ومن العلماء من ذهب إلى كون الحديث فى المرّة الأولى عن البلد الحرام ابتداءً فناسبه التّنكير ، وفى المرّة الثّانية استئنافًا فناسبه التّعريف .

وقد اختلف العلماء فى مكّة هل صارت حرمًا بسؤال إبراهيم أو كانت قبله كذلك على قولين[2] وقد رجّح الطّبرىّ بعد مناقشةٍ مستفيضةٍ للمسألة أنّ مكّة كانت حرمًا قبل سؤال إبراهيم عليه السّلام ، ومنذ أن خلق الله تعالى السّماوات والأرض والشّمس

---

(١) سورة إبراهيم ٣٥

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٣ .

والقمر[١] يقول الطّبرىّ[٢] : « والصّواب من القول فى ذلك عندنا أنّ الله تعالى ذكره جعل مكّة حرمًا حين خلقها وأنشأها كما أخبر النّبىّ ﷺ أنّه حرّمها يوم خلق السّماوات والأرض بغير تحريمٍ منه لها على لسان أحدٍ من أنبيائه ورسله ولكن بمنعه من أرادها بسوءٍ وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات وعن ساكنيها ما أحلّ بغيرها وغير ساكنيها من النّقمات . فلم يزل ذلك أمرها حتّى بوّأها الله إبراهيم خليله وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل ، فسأل حينئذٍ إبراهيم ربّه إيجاد فرض تحريمها على عباده على لسانه ليكون ذلك سنّةً لمن بعده من خلقه يستنّون به فيها إذ كان تعالى ذكره قد اتّخذه خليلاً وأخبره أنّه جاعله للنّاس إمامًا يقتدى به ، فأجابه ربّه إلى ما سأله وألزم عباده حينئذٍ فرض تحريمه على لسانه ، فصارت مكّة بعد أن كانت ممنوعةً بمنع الله إيّاها بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده ومحرّمةً بدفع الله عنها بغير تحريمه إيّاها على لسان أحدٍ من رسله ، فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم عليه السّلام وواجبٌ على عباده الامتناع من استحلالها واستحلال صيدها وعضاهها بإيجابه الامتناع من ذلك ببلاغ إبراهيم رسالة الله إليه بذلك إليهم فلذلك أضيف تحريمها إلى إبراهيم .... » .

وإنّما يكمل الأمن وينتظم عقده بتحقّق الرّزق وتيسّره إذ لا قيمة حقيقيّةً للأمن دون توافر الرّزق وطرد شبح الجوع ، ولا قيمة حقيقيّةً لتوفّر الثّمرات دون تحقّق الأمن . إنّ الإطعام من الجوع والأمن من الخوف معًا نعمتان من أكبر نعم الله تعالى المتلازمة . وها هو ذا إبراهيم عليه السّلام بعد أن دعا ربّه جلّ وعلا أن يجعل البلد الحرام بلدًا آمنًا ، دعا ربّه جلّ وعلا أن يرزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر . إنّ إبراهيم عليه السّلام بعد أن ذكر كلّ أهل البلد الحرام ، وفيهم الظّالمون كما عرفنا وفى مقدّمة هؤلاء الظّالمين المشركون مع الله تعالى غيره كمشركى مكّة على عهد المصطفى ﷺ وقبل الإسلام ، ينصّ على المؤمنين منهم بخاصّة وذلك فى صيغة بدل البعض « من آمَنَ مِنْهُم » مِن الكلّ : « أَهْلَه » وهو فى هذا التّخصيص يتمشّى بموجب ما فهمه من قصر الله تعالى عهده على المؤمنين . فهؤلاء المؤمنون هم الّذين يستحقّون الرّزق من الثّمرات ، وذلك

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ (٢) تفسير الطبرى ١ /٤٢٦ .

إثر تحقّق نعمة الأمن لهم .

وإنّ إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب لينصّ من بين أركان الإيمان على الرّكنين الرّئيسيّين ، الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر ، ويندرج تحت هذين الرّكنين أركان الإيمان الأخرى . فالمعروف أنّ الإيمان بالله تعالى يمثّل نقطة البداية ، وأنّ الإيمان باليوم الآخر يمثّل نقطة النّهاية ، وبين هاتين النّقطتين أو هذين الضّابطين تقع أركان الإيمان الأخرى الّتى يوجّهها ويسدّدها هذان الرّكنان العظيمان الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر . إنّه فى ضوء الإيمان بالله تعالى يتّضح الطّريق القويم والصّراط المستقيم . وفى ضوء الإيمان باليوم الآخر يتحدّد نوع العمل فى هذه الحياة الدّنيا حياة الحرث والزّرع ، كى يجنى المرء يوم القيامة أنواع الثّمار . وإنّما تكون الثّمار من جنس البذور ، وإنّما تكون مقدار جودتها بمقدار العمل الصّحيح الصّالح الّذى بُذِل من أجلها حرثًا وزرعًا . وإنّه بمقدار التّقصير أو التّفريط يكون النّقصان أو الخسارة . وإلى النّتيجة الصّالحة والثّمرة الطّيّبة أشار على سبيل المثال قوله تعالى من سورة النّحل[1] : ﴿ من عَمِلَ صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

إنّ ربّ العزّة الرّءوف الرّحيم بعباده ، والّذى سبقت رحمته غضبه ومغفرته عذابه ، ليبيّن لإبراهيم عليه السّلام مظهرًا من مظاهر فضله جلّ وعلا على عباده بقصد أن يستمرّ المستقيمون على استقامتهم ، وأن يعود المنحرفون عن جـادّة الصّواب إلى الصّراط المستقيم ، وذلك بتبيين فضل الله تعالى على عباده المؤمنين من أهل البيت الحرام باستجابة دعوة إبراهيم عليه السّلام بأن يرزق أهله من الثّمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، وبشمول هذا الفضل للكافرين نعم الله تعالى من سكّان الحرم ، الجاحدين آلاءه جلّ وعلا ، وذلك فى هيئة الرّزق من الله تعالى المنهمر عليهم ، وهم فى ذلك الوادى غير ذى الزّرع ، ثمراتٍ بالغةً ناضجةً تستقرّ فى ودايهم غير ذى الزّرع ، بكميّاتٍ كبيرة هائلة وكيفيّات مختلفةٍ متباينة ، للدّرجة الّتى تلحق الذهول بأولئك الواقفين على حقائقها الّذين أتوا من كلّ فجٍّ عميق ، من بلاد الخيرات والثّمرات ، بلاد السّماوات المنهمرات والأنهار

---

(١) الآية ٩٧ .

الجاريات من تحت أرجلهم المتدفّقات . إنّ الثّمرات فى البلد الحرام آناء اللّيل وأطراف النّهار تتدفّق عليها من أرجاء المعمورة ، ففيها من الثّمرات المجتمعة من بيئات مختلفة متباينة ما لا يوجد فى سواها . فسبحان الله تعالى الفعّال لما يريد ، الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وقياسًا على كون مَنْ من القول ﴿ مَنْ آمن ﴾ اسم موصول نميل إلى الاعتقاد بكون من فى القول ﴿ ومن كفر ﴾ اسم موصول تضمّن معنى الشّرط إنّ ربّ العزّة يبيّن لإبراهيم عليه السّلام المتأدّب بما علّمه الله تعالى فقصر طلب الرّزق منه جلّ وعلا على المؤمنين ، فخرج بذلك الظّالمون الّذين أخرجوا قبل من عهده جلّ وعلا بالإمامة . إنّ ربّ العزّة يبيّن لإبراهيم عليه السّلام مظهرًا من مظاهر فضله ، ورحمته الّتى سبقت غضبه ، وهوان هذه الدّنيا عليه جلّ وعلا وهى الأقلّ شأنًا مِنْ جناح بعوضة وإلاّ لما سُقِىَ فيها الكافِرُ شَرْبة ماء ، وذلك بتجاوز الرّزق المؤمنين بالله واليوم الآخر من سكّان الحرم إلى الكافرين بقصد أن يقوم الآخرون بالشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه ، وأن ينتفعوا من فترة الإمهال هذه ، وأن يقدروا تلك النّعم حقّ قدرها . أمّا إذا ظنّ أولئك الكافرون أنّ إمهال الله تعالى لهم إهمال ، وأنّ الرّزق الّذى وصل إليهم إنّما وصل إليهم ، كما وصل إلى قارون حسب ظنّه ، بعلمهم ، فإن السّنّة ماضية والوعد لن يتخلّف . إنّ الله سبحانه وتعالى سيمتّع أولئك الكافرين الظّالمين مدّة بقائهم فى هذه الحياة الدّنيا بمتعها الرّخيصه الزّائلة . إنّ تلك المتع الدّنيويّة مهما طال أمدها وتنّوعت سبلها فلا قيمة حقيقيّة لها لأنّ مصيرها إلى زوال . والأدهى من ذلك والأنكى أنّها كانت صارفةً عن متع الآخرة الباقية الخالدة ، بل عن المتع الحقيقيّة فى هذه الحياة الدّنيا والّتى تتمثّل حقًّا فى الحياة الطّيّبة فى الأولى ، الّتى تعتبر تمهيدًا للحياة الطيّبة فى الأخرى حيث البقاء السّرمدىّ والنّعيم المقيم .

وإنّ عذاب النّار وبئس المصير والقرار الّذى يوعد بكلّ منهما الكافرون فى الحياة الأخرى ، من الجائز أن يسبقه فى هذه الحياة الأولى عذابٌ أليم . وبهذا لا تكون ثمّة حياةٌ طيّبةٌ حقيقيّة فى الحياتين الأولى والآخرة ، فى حقّ أولئك الكافرين الظّالمين ، بكلّ المقاييس

الّتى يقاس بها الطّيّب من الخبيث ، بما فى ذلك مقياس أولئك الكافرين الظّالمين . من هو الّذى لديه مُسْكَةٌ من عقل ويتبيّن له كلّ الخسائر الّتى لحقت بالكافرين والظّالمين ويعتقد وراء ذلك أنّ النّعيم القليل الزّائل الّذى حصل عليه الكافرون ، والّذى كان صارفًا حقيقيًّا عن الحياة الطيّبة فى الأولى والآخرة ، النّعيم المقيم فى دار البقاء والخلود ، له أدنى قيمة أو أدنى ثمرة ؟ إنّ غير العاقل هو الّذى يصحّ أن يظنّ شيئًا من ذلك ، وإنّ غير العاقل مرفوعٌ عنه القلم حتّى يفيق .

الآيــة رقــم (١٢٧)

قال تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السّميع العليم ﴾ .

القواعد : جمع قاعدة يقال للواحدة من قواعد البيت قاعدة وللواحدة من قواعد النّساء وعجائزهنّ قاعد ، فتلغى هاء التّأنيث لأنّها فاعل من قول القائل : قعدت عن الحيض ولاحظّ فيه للذّكورة كما يقال : امرأة طاهر وطامث لأنّه لاحظ فى ذلك للذّكور . ولو عنى به القعود الّذى هو خلاف القيام لقيل قاعدة و لم يجز حينئذ إسقاط هاء التّأنيث . وقواعد البيت أساسه(١) فى قول أبى عبيدة والفرّاء(٢) وفى الحديث : إنّ البيت لمّا هدم أخرجت منه حجارةٌ عظام ، فقال ابن الزّبير : هذه القواعد الّتى رفعها إبراهيم . وقيل إنّ القواعد كانت قد اندرست فأطلع الله إبراهيم عليها(٣) .

واختلف أهل التّأويل فى القواعد الّتى رفعها إبراهيم وإسماعيل من البيت أهما أحدثا ذلك أم هى قواعد كانت له قبلهما ؟(٤) واختلف النّاس فيمن بنى البيت أوّلاً وأسّسه

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٨ .

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٥ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١ / ٧٨ والكشّاف ١/٣٣٨ والبحر المحيط ١ / ٣٧٣ .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٠٥

(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٨ .

فقيل الملائكة وقيل آدم عليه السّلام[١] وبعد أن أفاض الطّبرىّ فى ذكر رواياتٍ متعدّدة فى هذا الشّأن وبيّن أنّ حقيقة ذلك لا تدرك إلاّ بخبرٍ عن الله وعن رسوله ﷺ بالنّقل المستفيض ولا خبر بذلك تقوم به الحجّة فيجب التسليم لها ولا هو ممّا يدلّ عليه بالاستدلال والمقاييس وكل العلم فى ذلك إلى الله تعالى فقال : « والله تعالى أعلم »[٢].

يتّجه الخطاب فى الآية الكريمة على غرار الآيات الكريمات الثّلاث السّابقات إلى المصطفى ﷺ إذ تبدأ الآية الكريمة هى الأخرى بالقول : « وإذ » ويعود الحديث إلى إبراهيم وإسماعيل اللّذين أمرهما الله تعالى برفع القواعد من البيت العتيق وتشييد الأسس . والمعنى : واذكر يا محمّد إذ يرفع إبراهيم وابنه إسماعيل ، امتثالاً لأمر ربّهما جلّ وعلا ، القواعد من البيت الحرام ، ويضعان الأسس ويكملان بناء الجدران . ويلاحظ أنّ التّعبير يجىء فى هذه الصّيغة « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت » وليس : وإذ يرفع إبراهيم قواعد البيت . وقد لاحظ العلماء أنّ فى مجىء لفظة القواعد مبهمةً وفى تبيينها بعد الإبهام إذ فُهِم أنّها قواعد بيت الله تعالى ، تفخيمًا لشأن تلك القواعد ، وتنويهًا بها ، فتلك فائدة التبيين بعد الإبهام ، والإيضاح بعد الإخفاء . وقد اكتسبت القواعد تلك المنزلة لأنّها اقترنت بالبيت الّذى جاء معرّفًا بالألف واللّام لوضوح شأنه وليس بالإضافة . وقد اكتسبت لفظة القواعد الكثير من رفعة شأن البيت . إنّه بيتٌ لله تعالى وليس لسواه وبسبب ارتكاز هذه الرّفعة فى الطّباع كان التّعريف بالألف واللّام بالذّات .

وإنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام اللّذين يبنيان بجدٍّ واجتهاد بيت الله تعالى الحرام ، امتثالاً لأمره جلّ وعلا ، ليقرنان بالعمل الصّالح ، القول الصّادق الدّالّ على إخلاصهما العمل لله تعالى وحده لا شريك له ، ونيّتهما الصّادقة فى سبيل مرضاته جل وعلا . إنّهما ليدعوان الله تعالى من أعماقهما ويسألان ربّهما جلّ وعلا بصدقٍ وإخلاص أن يتقبّل منهما . وإذا كان منه جلّ وعلا التّقبّل كان الثّواب الجزيل والخير العميم . وانظر إلى لفظة الرّبّ الّتى تجىء على لسانهما عليهما الصّلاة والسّلام : ﴿ ربّنا تقبّل منا ﴾ والمعنى

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٥٠٦ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٨ .

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٢٨ .

ويقولان يا ربّنا . وقد عرفنا أنّ لفظة ربّ تقترن بمواطن الخصوص وشكر المنعم جلّ وعلا مربّى عباده بنعمه وآلائه جلّ وعلا ، ولم تجىء ياء النّداء لقرب المنادى .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ إنّك أنت السّميع العليم ﴾ إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام على علمٍ تامٍّ بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل من الأعمال الصّالحة إلاّ ما أريد به وجهه الكريم وحده جلّ وعلا . وإنّ الصّفتين اللّتين يتضمنهما التّذييل مبنيّتان على معنى الآية الكريمة متمّمتان له . فالله سبحانه وتعالى هو السّميع لدعائهما الصّادق المخلص من أعماقهما بأن يتقبّل منهما جلّ وعلا صالح عملهما ، والله سبحانه وتعالى هو العليم ، ولا زلنا مع صيغة المبالغة فعيل ، بعملهما المتمثّل فى رفع القواعد من البيت ، وبنيّتهما الصّادقة المخلصة ، فهما إنّما يريدان بعملهما الصّالح الجليل رضا الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

وإنّ للمسلمين أسوةً حسنة فى إبراهيم عليه السّلام وكذلك فى ابنه إسماعيل عليه السّلام ، اللّذين رفعا بأيديهما القواعد من البيت الحرام . وإنّ للمسلمين أسوةً حسنةً فى المصطفى ﷺ محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين فى بنائه للمساجد ورفعه لبيوت الله تعالى ، وفى مقدّمة هذه المساجد مسجد قباء أوّل مسجد أُسِّسَ على التّقوى وقد بناه بيده الشّريفة خلال بقائه عليه الصّلاة والسّلام بقباء من يوم الاثنين إلى صبيحة يوم الجمعة ، اليوم الّذى وصل فيه المدينة المنوّرة مهاجرًا ، وفى بنائه للمسجد النّبوىّ الشّريف الّذى بناه عليه الصّلاة والسّلام فى المكان الّذى بركت فيه ناقته ﷺ بالمدينة المنوّرة . لنصغ فى هذا الشّأن إلى قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ إنّما يَعْمُرُ مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة ولم يخش إلاّ الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ . وإلى قوله تعالى[2] : ﴿ فى بيوتٍ أذن الله أن تُرفع ويُذْكَرَ فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال . رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة يخافون يومًا تتقلّب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله . والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

---

(١) سورة التّوبة ١٨ (٢) سورة النّور ٣٦ — ٣٨ .

ويتلو هذه الدّعوة الرّئيسيّة الأولى بأن يتقبّل جلّ وعلا ، منًّا منه وفضلاً ، من إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام رفعهما لقواعد البيت العتيق ، مجموعةٌ من الدّعوات ، وفى الآية الكريمة التّالية بعض تلك الدّعوات المبنيّة على الدّعوة الأولى المترتّبة عليها .

الآيــة رقــم (١٢٨)

قال تعالى : ﴿ ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيّتنا أمّةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرّحيم ﴾ .

أمّة : الأمّة الجماعة هنا[١] وهو لفظٌ مشترك ينطلق على الجماعة والواحد المعظّم المتبوع والمنفرد فى الأمر والدّين والحين[٢] وهو بمعنى الجماعة من النّاس فى قولــه تعالى[٣] : ﴿ ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون ﴾[٤] وهو بمعنى الواحد الّذى يقتدى به فى الخير فى قوله تعالى[٥] : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّةً قانتًا لله حنيفًا و لم يك من المشركين ﴾[٦] .

وأرنا مناسكنا : بمعنى رؤية العين أى أظهرها لأعيننا حتّى نراها[٧] قال عطاء : أرنا مناسكنا أخرجها لنا علّمناها[٨] وعليه تكون جملة أرنا من رؤية البصر فتتعدّى إلى مفعولين[٩] والتّعدّى هنا إلى اثنين ظاهر لأنّه منقولٌ بالهمزة من المتعدّى إلى واحد[١٠] رأى .

فما معنى المناسك ؟ المنّاسك جمع منسك[١١] والمنسك بفتح السّين وكسرها[١٢]

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥١٢ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٣ والبحر المحيط ١ / ٣٧٣ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٣
(٣) سورة الإعراف ١٥٩ .
(٤) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٣
(٥) سورة النّحل ١٢٠ .
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥١٢
(٧) تفسير الطّبرىّ ص ١/٤٣٣
(٨) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٤ .
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥١٢ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٣٩٠
(١١) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٤ .
(١٢) انظر البحر لمحيط ١ / ٣٧٤ ومعجم مقاييس اللّغة « نسك » ٥ / ٤٢٠ .

وقيل : إنّه بفتح السّين مصدر وبكسرها اسم مكان[١] ويقول أبو حيّان[٢] : « والكسر فى سين منسك شاذ لأنّ اسم المصدر والزّمان والمكان من يَفْعُل بضمّ العين أو فتحها مَفْعل بفتح العين إلاّ ما شذّ من ذلك[٣] فما معنى المنسك ؟ كى نتبيّن معنى المنسك نودّ أن نقف ابتداءً عند الآيتين الكريمتين من سورة الحجّ اللّتين جاء فى كلٍّ منهما هذا اللّفظ بصيغة المفرد . قال تعالى[٤] : ﴿ ولكلّ أمّةٍ جعلنا مَنْسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ والمعنى ولكلّ أمّةٍ من الأمم السّابقة الّتى بعث الله تعالى إليها أنبياءه ورسله قد جعل الله تعالى موضع ذبحٍ للأنعام ومكان إراقةٍ لدمائها ليذكروا اسم الله تعالى على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند ذبحها امتثالاً لأوامره جلّ وعلا . وقال تعالى[٥] : ﴿ لكلّ أمّةٍ جعلنا مَنْسَكًا هم ناسكوه فلا ينازعُنَّكَ فى الأمر وادع إلى ربّك إنّك لعلى هدًى مستقيم ﴾ .

ونحن فى نظرتنا للفظة منسك بحاجةٍ إلى أن نتمثّل الرّؤية البصريّة فى القول : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ وأن نتمثّل السّياق الّذى جاءت فيه فى سورة الحجّ لفظة منسك مفردة ، وبخاصّةٍ المرّة الأولى . وهذا يقتضينا أن ندوّن الآيات الكريمات من سورة الحجّ كى نتبيّن السّياق من ناحية وكى نتبيّن التّشابه بين موقفى إبراهيم عليه السّلام فى آيات سورة الحجّ وفى آيات سورة البقرة . قال تعالى[٦] : ﴿ وإذ بوّأنا لإبراهيم مكانَ البيتِ ألاّ تشرك بى شيئًا وطهّر بيتى للطّائفين والقائمين والرّكّع السّجود . وأذّن فى النّاس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلّ فجّ عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيّامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير . ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطّوّفوا بالبيت العتيق . ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خيرٌ له عند ربّه ، وأحلّت لكم الأنعام إلاّ ما يُتْلَى عليكم فاجتنبوا الرّجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور . حنفاءَ لله غير مشركين به . ومن يشرك بالله فكأنّما خرّ من السّماء فتخطفه

---

(١) من تفسير الجلالين للآية ٣٤ من سورة الحج .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٧٤ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٧٤ .

(٤) سورة الحج ٣٤ .

(٥) سورة الحج ٦٧ .

(٦) سورة الحج ٢٦ — ٣٧ .

الطّير أو تهوى به الرّيح فى مكانٍ سحيق . ذلك ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجلٍ مسمًّى ثمّ مَحلُّها إلى البيت العتيق . ولكلّ أمّةٍ جعلنا مَنْسَكًا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام فإلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ فله أسلموا وبشّر المخبتين . الّذين إذا ذُكِر الله وَجِلَتْ قلوبُهُمْ والصّابرين على ما أصابهم والمقيمى الصّلاةِ وممّا رزقناهم ينفقون . والبُدنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خيرٌ فاذكروا اسم الله عليها صوافَّ فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ . كذلك سخّرناها لكم لعلّكم تشكرون . لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التّقوى منكم . كذلك سخّرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين ﴾ .

إنّ لفظ منسك يجيء فى إحدى الآيات الكريمات الّتى تتحدّث حديثًا مستفيضًا عن الحجّ إلى بيت الله الحرام على نحو ما أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السّلام أن يفعل فى الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام ، والمعروف أنّ أداء هذا الرّكن على هذه الكيفيّة الّتى تحدّثت عنها الآيات الكريمات الّتى تحدّثت عن إبراهيم عليه السّلام هو بعض الإرث الّذى ورثه أتباع محمّد ﷺ عن أبيهم إبراهيم عليه السّلام ، والمعروف أنّ المصطفى ﷺ الّذى أوحى الله تعالى إليه أن يتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا قد حجّ إلى بيت الله تعالى مطبّقًا ما أوحى الله تعالى إليه من قرآنٍ كريم يتحدّث عن إبراهيم عليه السّلام ومناسك الحجّ ، ومن سنّةٍ نبويّة مطهّرةٍ أوحاها الله تعالى إليه كما أوحى القرآن الكريم .

فإذا تأمّلنا هذه الآية الكريمة من سورة الحج: ﴿ولكلّ أمّةٍ جعلنا منسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلٰهكم إلٰهٌ واحدٌ فله أسلموا وبشّر المخبتين﴾ وهذه الآية الكريمة من السّورة ذاتها: ﴿لكلّ أمّةٍ جعلنا مَنْسَكًا هم ناسكوه فلا ينازعنّك فى الأمر وادع إلى ربّك إنّك لعلى هدىً مستقيم ﴾ تبيّنّا أنّ كلاًّ منهما يفهم منها أنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل لكلّ أمّةٍ من الأمم السّابقة الّتى بعث الله تعالى إليها نذيرًا منسكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، ومكانًا للذّبح والنّحر ، وموضعًا يقصدونه ويزورونه ويحجّون إليه ، من أجل عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وذكر اسمه جلّ وعلا وحده لا شريك له حينما يذبحون وينحرون ممّا رزقهم الله تعالى من بهيمة الأنعام . وقد

شاءت العناية الإلٰهيّة بشأن دين الإسلام النّاسخ للدّيانات السّماويّة السّابقة أن يستقرّ الحجّ إلى يوم الدّين فى الصّورة الّتى كان عليها فى عهد إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء وكما مارسه ﷺ فى حجّة الوداع وفى حجّة البلاغ وفى حجّة الإسلام ، وهى الحجّة الوحيدة الّتى حجهّا المصطفى ﷺ فى الإسلام والّتى قال فيها : خذوا عنّى مناسككم .

أما وقد تبيّن أنّ المنسك أساسًا بمعنى المذبح أى مكان الذّبح وأنّ المناسك المذابح[١] فإنّا نستطيع أن نتبيّن أبعاد مثل هذا القول لابن فارس[٢] : « والذّبيحة الّتى تَتَقَرَّبُ بها إلى الله نَسِيكة . والمنسَك : الموضع الّذى يُذْبَحُ فيه النّسائك ، ولا يكون ذلك إلاّ فى القُرْبَان» ومعروفٌ العلاقة الوثيقة بين ذبح النّسيكة وبين الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام . وكأنّ لفظة منسك إنّما أطلقت أساسًا على هذا العمل المعيّن من أعمال الحجّ ، بسبب العلاقة الوثيقة بين هذا النّوع من أنواع عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وبين الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام . ولمّا كان القيام بهذه الشّعيرة فى الحجّ مرتبطًا به القيام بالعديد من مظاهر عبادة الله تعالى وحده لا شريك له من ذكرٍ لله تعالى وشكر وصدقةٍ وإحسان وما إلى ذلك ، فقد اتّسع لفظ المناسك كى يشمل مواقف النّسك وأعمالها ، وهذه مرتبطة بالحجّ إلى بيت الله تعالى ، بل أن يكون لفظ النّسك المرتبط أساسًا بأعمال الحجّ المختصّ بها شاملاً للعبادة . يقول الرّاغب الأصفهانىّ[٣] : « والمناسك : مواقف النُّسك وأعمالها » ويقول ابن فارس[٤] : « النّون والسّين والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلّ على عبادةٍ وتقرّب إلى الله تعالى . ورجلٌ ناسك » ويقول الرّاغب أيضًا[٥] : « النُّسك : العبادة ، والنّاسك العابد ، واختُصَّ بأعمال الحجّ » .

أما وقد تبيّنّا المراحل الّتى قطعتها لفظة منسك ابتداءً بموضع الذّبح وانتهاءً بأعمال الحجّ بعامّة ، فإنّا نستطيع أن نفهم تفسير فريقٍ من العلماء القول : « وأرنا مناسكنا » أرنا

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ١ / ٤٣٣ وانظر الدّراسة القيّمة لأبى الحسن الندوىّ فى الأركان الأربعة ص ٢٨٤ فما بعدها وكذلك ما قبلها .

(٢) معجم مقاييس اللّغة «نسك» ٥ / ٤٢٠ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٤٩١ .

(٤) معجم مقاييس اللّغة «نسك» ٥ / ٤٢٠ .

(٥) مفردات الرّاغب الاصفهانىّ ص ٤٩٠ .

مناسك حجّنا وأعلمنا معالمها[١] بعد أن وقفنا على التّفسير الآخر وهو أنّ المناسك بمعنى المذابح ، وهذا رأى عطاء ومجاهد وغيرهما[٢] كما أنّا نستطيع أن نفهم قول الطّبرىّ[٣] : « وأمّا المناسك فإنّها جمع منسك ، وهو الموضع الّذى ينسك لله فيه ويتقرّب إليه فيه بما يرضيه من عملٍ صالح إمّا بذبح ذبيحةٍ له وإمّا بصلاةٍ أو طوافٍ أو سعيٍ وغير ذلك من الأعمال الصّالحة ، ولذلك قيل لمشاعر الحجّ مناسكه لأنّها أمارات وعلاماتٌ يعتادها النّاس ويتردّدون إليها ..... وقد قيل إنّ معنى النّسك عبادة الله وإنّ النّاسك إنّما سمّى ناسكًا بعبادة ربّه .... » ويقول[٤] : « الغالب على معنى المناسك ما وصفنا قبل من أنّها مناسك الحجّ الّتى ذكرنا معناها » وهذا الرّأى الّذى ارتضاه الطّبرىّ قد بين أبعاده قتادة والسّدّىّ[٥] .

ونخلص من هذه الجولة الواسعة أنّ المراد بقوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام : « وأرنا مناسكنا » أرنا يا ألله بأبصارنا وأعلمنا مناسك حجّنا إلى بيتك الحرام ومعالم زيارة بيتك العتيق . « عن قتادة ، قوله : وأرنا مناسكنا فأراهما الله مناسكهما الطّواف بالبيت والسّعى بين الصفّا والمروة والإفاضة من عرفات والإفاضة من جَمْع ورمى الجمار حتّى أكمل الله الدّين أو دينه »[٦] ويلاحظ أنّ عناصر الحجّ هذه فى مجموعها ممّا يعلمه الإنسان عن طريق الإبصار والمشاهدة .

فى أثناء قيام إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السّلام بأجلّ عملٍ ألا وهو بناء البيت العتيق دعوا الله سبحانه وتعالى ابتداءً أن يتقبّل منهما ذلك العمل الصّالح الّذى أرادا به وجه الله تغالى ، لأنّ أهمّ ما فى القيام بالأعمال أن يتقبّلها الله تعالى . والله سبحانه وتعالى لا يتقبّل من الأعمال إلاّ ما كان صالحًا موافقًا للشّرع وخالصًا لله تعالى وحده لا شريك له . ويأتى إثر هذه الدّعوة الأساسيّة الّتى اشتملت عليها الآية الكريمة السّابقة ، مجموعةٌ من الدّعوات موزّعةٌ على آيتين كريمتين ، أولاهما الآية الكريمة الّتى نحن بصددها .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٣

(٢) انظر تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٤ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٤

(٤) تفسير الطّبرى ١ / ٤٣٤ .

(٥) انظر تفسير الطبرى ١ / ٤٣٣

(٦) تفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٣ .

وعلى غرار ابتداء الدّعوة الأساسيّة السّابقة بالقول : « ربّنا » تبدأ هذه الآية الكريمة المتضمّنة مجموعةً من الدّعوات ، وكذلك تبدأ الآية الكريمة التّالية . وعلى غرار حذف ياء النّداء فى المرّة الأولى من القول « ربّنا » إذ المعنى يا ربّنا ، يُحْذف حرف النّداء فى المرّتين التّاليتين ، تعميقًا للتّمشّى مع فحوى قوله عزّ من قائل فى هذه السّورة الكريمة(١) : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلّهم يرشُدون ﴾ .

والآية الكريمة تبيّن الخلق العظيم الّذى فطر عليه جلّ وعلا أنبياءه ، والتّواضع الجمّ ، والعطف والشّفقة على عباد الله تعالى ، والجدّ والاجتهاد فى مجال العبادة توخّيًا للكمال ، وهضم النّفس وإنكار الذّات لأنّهم يقينًا على علمٍ بأنّ كلّ خيرٍ وصل إليهم وفضلٍ جاءهم إنّما هو هبةٌ من الله تعالى ومنّة فلا حول لهم ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم . وكلّ هذه دروسٌ عظيمة ينبغى أن ينتفع بها عباد الله تعالى المسلمون لله ربّ العالمين .

إنّ الدّعوة الأولى وحدها فى الآية الكريمة تصدّر بالقول : « ربّنا » وقد عرفنا المعانى الجليلة الّتى ترتبط بلفظ الرّبّ من تنبيهٍ إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ، وشكرٍ له جلّ وعلا على ذلك ، وجوٍّ عاطر يعبق بشذا السّعادة والحبور ، الرّضا والامتنان . وتعطف الدّعوة الأولى على سابقتها فى الآية الكريمة السّابقة . وتعتبر هذه الدّعوة امتدادًا للدّعوة السّابقة واستمرارًا لها . فبعد سؤاله جلّ وعلا أن يتقبّل منهما عملهما الصّالح هما يدعوان الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له تعالى مستسلمين لإرادته خاضعين لمشيئته . ومن المعروف أنّ الإسلام لله ربّ العالمين يمثّل درجةً سابقةً للإيمان حينما يعلن المرء بلسانه الدّخول فى دين الإسلام وبذلك يحقن دمه ، ودرجةً لاحقةً للإيمان يتمثّل فيها قمّة الإذعان لله تعالى . ولا شكّ أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام اللّذين أكرمهما الله تعالى بدرجة النّبوّة يمثّلان أعلى مستويات المرحلة الأخيرة من الإسلام لله ربّ العالمين بمعنى الامتثال الكامل لإرادته جلّ وعلا « ربّنا واجعلنا مسلمَين لك » .

وفى غمرة القيام بذلك العمل الجليل وهو بناء البيت العتيق ودعاء الله تعالى بما فيه

---

(١) سورة البقرة ١٨٦ .

صلاح الدّين أوّلاً وأخيرًا ، لا ينسى إبراهيم الحليم الأوّاه المنيب ، ولا ينسى إسماعيل الصّادق الوعد الرّسول النّبيّ المحافظ على الصّلوات الآمر أهله بها ، لا ينسى كلٌّ من الرّسولين الكريمين ذرّيّتهما . وسبق أن تبيّنّا أنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بعد أن نجح فى ابتلاء الله تعالى له بالكلمات وبعد أن بشّره ربّه جلّ وعلا بأنّه جاعله للنّاس إماما لم ينس ذرّيّته . وحينما لا ينسى إسماعيل عليه السّلام ذرّيّته فإنّه يتأثّر بأبيه ويتشبّه به ، ومن يشابه أبه فما ظلم . وقد فطن العلماء إلى أنّ إبراهيم عليه السّلام ، ويلحق به ابنه إسماعيل عليهما السّلام هما الرّسولان الكريمان اللّذان لم ينسيا ذرّيّتهما فى الدّعاء .

أما وقد علم إبراهيم عليه السّلام بأنّ فى ذرّيّته الظّالمين إضافةً إلى المسلمين ، فقد قصر دعوته بشأن إسلام الذّريّة لله ربّ العالمين على بعض الذّرّيّة دون بعض ، وبذلك خرج الظّالمون من دعوة إبراهيم عليه السّلام ، وهو امتدادٌ لخروجهم من دعوته بأن يرزق الله تعالى أهل البيت العتيق الّذين يؤمنون بالله واليوم الآخر من الثّمرات . إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام يدعوان الله تعالى أن يجعل من ذرّيّتهما أمّةً مسلمةً له جلّ وعلا . والذّريّة تشمل القريب من النّسل والبعيد .

ولمّا كانت رؤية المناسك ممكنةً بإذن الله تعالى وفضله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام وذرّيّتهما ، فقد كان التّعبير شاملاً لهما ولذرّيّتهما ، بل إنّ الدّعاء يصحّ أن يشمل الذّرّيّة من الظّالمين ، لأنّ الأملَ كبيرٌ فيه جلّ وعلا أن يتوب عليهم فيتحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين . وهذا المعنى كما هو واضحٌ موطّىءٌ للدّعوة الأخيرة بأن يتوب الله سبحانه وتعالى عليهما .

وقد عرفنا أنّ المراد بالمناسك فى القول : « وأرنا مناسكنا » أرنا مناسك الحجّ وبيّن لنا معالمه . ومعروفٌ أنّ كلّ أركان الإسلام ، بما فى ذلك الصّيام ، تتمثّل فى الحجّ إلى بيت الله تعالى الحرام . ويلاحظ أنّ هذه الدّعوة « وأرنا مناسكنا » ذات علاقةٍ وثيقةٍ بالبيت الحرام الّذى بناه كلٌّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام .

وإذا كنّا تبيّنّا شمول رؤية المناسك للظّالمين بقصد أن يعودوا إلى الصّراط المستقيم بأن يتوبوا إلى الله تعالى ويتوب الله عليهم ، وفى ذلك توطئةٌ للدّعاء بالتّوبة الّتى جاءت آخرًا

فى الآية الكريمة، فإنّا نتبيّن فى هذه الدّعوة الأخيرة « وتب علينا » استمرارًا للخلق العظيم الّذى فطر الله تعالى عليه هذين الرّسولين الكريمين حينما يسألان الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له تعالى ، وحينما يدعوان للذّريّة الصّالحة بالارتقاء إلى هذا المستوى الرّفيع من الإسلام لله ربّ العالمين . إنّ الرّسولين الكريمين يهضمان نفسيهما — وَحُقّ لهما ذلك — بدعاء الله تعالى ، وهما النبيّان المعصومان ، بأن يتوب عليهما . إنّا لا نملك تجاه هذا التّواضع الجم والهضم لحقوق الذّات إلاّ أن نقول إنّ الرّسولين الكريمين يقدّمان لكلّ مسلم لله ربّ العالمين درسًا فى اليقظة والحذر وعدم الغفلة ووجوب العلم بأنّ دخول الجنّة إنّما يتمّ فقط بفضل الله تعالى الّذى يتجلّى فى قبوله ، منًّا منه تعالى على عباده ، أعمالهم الصّالحة الّتى أرادوا بها وجهه الكريم .

ولمّا كانت الدّعوة الأخيرة ذات علاقةٍ بالتّوبة فقد جاءت فى التّذييل أولى الصّفتين للذّات العليّة ذات العلاقة بالتّوبة وفى صيغة المبالغة ، وجاءت أخرى الصّفتين الّتى ختمت بها الآية الكريمة متعلّقة بالرّحمة وفى صيغة المبالغة كذلك : « وتب علينا إنّك أنت التّوّاب الرّحيم » إنّ التّوبة على العباد جزءٌ من الرّحمة ، وها هو ذا كلُّ الرّحمة يجىء بعد البعض . ثمّ إنّ الفاصلة السّابقة واللّاحقة فى حرف الميم . السّابقة : « إنّك أنت السّميع العليم » واللّاحقة : « إنّك أنت العزيز الحكيم » فثمّة توافق فى المعنى والمبنى وتجانسٌ بين اللّب والجوهر وبين الشّكل والمظهر[1] .

الآيــة رقــم (١٢٩)

قال تعالى : ﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ، إنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

هذه هى الدّعوة الأخيرة فى سلسلة دعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما الصّلاة والسّلام . وحينما نتبيّن أنّ إبراهيم عليه السّلام الحليم الأوّاه المنيب قد دعا لأهل البيت

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٣٩٢ .

الحرام بالأمن والخصب ، ودعا أن يكون من ذرّيته أمّةٌ مسلمةٌ لله ربّ العالمين ، وها هو ذا عليه السّلام يدعو ربّه جلّ وعلا أن يبعث فى الأمّة المسلمة من ذرّيته رسولاً منهم ، ندرك أنّه عليه السّلام قد دعا لأهل البيت الحرام بالأمن والخصب والهداية ، وندرك كذلك حظّ الهداية الموفور من الدّعاء فهنالك الأمّة المسلمة وهنالك الرّسول .

والآية الكريمة تبدأ كسابقتها بالقول : « ربّنا » وعلى غرار المرّتين السّابقتين فى الآيتين الكريمتين السّابقتين بحذف حرف النّداء ، إذ ليس ثمّة حاجةٌ إليه ، فالله سبحانه وتعالى أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى فإنّى قريبٌ أجيب دعوة الدّاع إذا دعان فلْيستجيبوا لى ولْيؤمنوا بى لعلّهم يرشدون ﴾ ومع أنّ هذه الدّعوة ببعث خاتم الأنبياء والمرسلين صادرةٌ من كلٍّ من إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام فإنّا بناءً على الأحاديث المتواترة وهى إحدى دعائم سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم ، نستطيع أن نفهم أنّ هذه الدّعوة مرتبطةٌ أساسًا بإبراهيم عليه السّلام ومنطلقةٌ منه ، ويصحّ أن نفهم أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يدعو ربّه جلّ وعلا وأنّ إسماعيل عليه السّلام كان يؤمّن . روى الأمام أحمد « عن العِرْباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : إنّى عند الله لخاتم النبيّين وإنّ آدم لمنجدل[2] فى طينته وسأنبّئكم بأوّل ذلك ، دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمّى الّتى رأت . وكذلك أمّهات النّبيّين يرين .... وقال الإمام أحمد أيضًا .... أخبرنا لقمان بن عامر قال : سمعت أبا أمامة قال . قلت يا رسول الله . ما كان أوّل بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى ، ورأت أمّى أنّه خرج منها نور أضاءت له قصور الشّام . والمراد أنّ أوّل من نوّه بذكره وشهره فى النّاس إبراهيم عليه السّلام . ولم يزل ذكره فى النّاس مذكورًا مشهورًا سائرًا حتّى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسبًا وهو عيسى ابن مريم عليه السّلام حيث قام فى بنى إسرائيل خطيبًا وقال : إنّى رسول الله إليكم مصدّقًا لما بين يدىّ من التّوراة ومبشّرًا برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد . ولهذا قال فى الحديث دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى

---

(١) سورة البقرة ١٨٦ .

(٢) يقال : جدّله فتجدّل وانجدل إذا رماه بالأرض فارتمى .

ابن مريم »[١] .

ومعنى القول : « ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم » يا ربّنا وأرسل فيهم رسولاً منهم . ويرتبط بجملة بعث الإثارة والتّوجيه[٢] والإيقاظ والتّنبيه . وثمّة وجه شبهٍ بين القول هنا : ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم ﴾ وبين الآية الكريمة من سورة الجمعة[٣] : ﴿ هو الّذى بعث فى الأمّيّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾ وبين الآية الكريمة من سورة آل عمران[٤] : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلالٍ مبين ﴾ .

إنّ الجار والمجرور « فيهم » يفيدان أنّ الرّسول المبعوث من ربّ العالمين سيكون فى هذه الذّرّيّة ومنها الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين ، وذلك فضلٌ من الله تعالى كبيرٌ أن يبعث الرّسول فى تلك الذّرّيّة المسلمة . ولا يقف الفضل عند ذلك الحدّ ، إنّما يتجاوزه إلى كون ذلك الرّسول المبعوث فيهم واحدًا منهم ، فهم على علمٍ تامٍّ بشخصه ، وبخلقه ، وبنسبه ، وبسيرته . وكلّ هذه الملابسات تدعو المنصفين إلى اتّخاذ الموقف الّذى ينبغى اتّخاذه من الشّخص الّذى يقول إنّه رسول ربّ العالمين . وقد كان المكّيّون الأمّيّون على علمٍ تامٍّ بخلق المصطفى العظيم قبل البعثة حتّى إنّه كان يلقّب بينهم بالأمين . والمعروف أنّ المصطفى ﷺ انفرد بين سائر النّبيّين بأنّ الّذين اتّبعوه ابتداءً كانوا أهله وأصدقاءه وأحبّاءه ، ولا يعرف الشّخص على حقيقته كما يعرفه أهله وأصدقاؤه وأحبّاؤه . وحينما يبادر هؤلاء إلى اعتناق الدّين الّذى يدعوهم إليه ذلك الرّسول ذو الخلق العظيم ، وحينما يثبتون على اعتناق الدّين الّذى رضيه الله تعالى لعباده فذلك دليلٌ يضاف إلى الأدلّة الأخرى الكثيرة

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ١٨٤ وانظر تعليق ابن كثير على تخصيص الشّام بظهور النّور ودلالة ذلك على استقرار الإسلام ببلاد الشّام وكونها آخر الزّمان معقلاً للإسلام .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٥٢ .

(٣) الآية ٢ (٤) الآية ١٦٤ .

الدّالّة على الثّمار الشّهيّة الّتى آتاها بعث الله تعالى فى الأمّيّين رسولاً منهم وعلى كون الرّسول المبعوث واحدًا منهم قوّةً تستفيد الرّسالة منها بسبب علائق الدّم وصلات النّسب ووشائج المصاهرة . إنّ هذه الحقائق قد آتت أكلها حقًّا بعد أن قضى الإسلام على دولة الشّرك فى مكّة وزالت الغُمّة عن القلوب وانكشفت الأغطية عن العيون ، فتحوّل أهل مكّة مسلمين لله ربّ العالمين مجاهدين فى سبيله جلّ وعلا .

والآية الكريمة تنصّ على بعض مظاهر هداية الرّسول ﷺ أمّته . فهو ﷺ يتلو على أمته آيات الله تعالى ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم .

وبالنّظر إلى المظهر الأوّل للهداية وهو تلاوة القرآن الكريم ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ والمراد تلاوته ﷺ على أمّته آى الذّكر الحكيم ، يتبيّن أهمّيّة تلاوة القرآن الكريم فى حقّ هذه الأمّة الإسلاميّة . والمعروف أنّ ربّ العزّة قد أمر حبيبه ﷺ فى غير ما موضعٍ فى القرآن الكريم بأن يتلوه ويرتّله ترتيلا . جاء مثلاً فى سورة النّمل[1] قوله تعالى : ﴿ إنّما أمرت أن أعبد ربّ هذه البلدة الّذى حرّمها وله كلّ شيءٍ وأُمِرْت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنّما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ ورتّل القرآن ترتيلا ﴾ وإنّ أمّة المصطفى ﷺ تبعٌ له فى ذلك . وما أعظم ثواب تلاوة القرآن الكريم . والمعروف أنّ ربّ العزّة قد سخر إلى يوم النّاس هذا ويسخّر إلى يوم الدّين من عُنِىَ ويُعْنَى بهذا الجانب من القرآن الكريم . وبذلك « يكون المعنى والله أعلم فى قوله : ﴿ يتلو عليهم آياتك ﴾ ، أى يفصح لهم عن ألفاظه ، ويوقفهم بقراءته على كيفيّة تلاوته كما قال ﷺ لأبىّ : إنّ الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن ، وذلك لأن يتعلّم أبىّ منه ﷺ كيفيّة أداء القرآن ومقاطعه ومواصله »[3] .

وبالنّظر إلى المظهر الثّانى للهدية بشقّيه يتبيّن أنّه المترتّب على تلاوة القرآن الكريم المبنىّ على ترتيله ترتيلا . إنّه تعليم معانى الكتاب العزيز وتعليم السّنّة المطهّرة المبيّنة للقرآن . « ويعلّمهم الكتاب والحكمة » .

---

(١) الآية ٩١ ، ٩٢ .
(٢) سورة المزّمّل ٤ .
(٣) البحر المحيط ١/ ٣٩٣ .

والمعروف أنّ المصطفى ﷺ بيّن لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم معانى الكتاب العزيز ، فقد بيّن لهم ﷺ « وجوه أحكامه وحلاله وحرامه ومفروضه ومسنونه ومواعظه وأمثاله وترغيبه وترهيبه والحشر والنّشر والعقاب والثّواب والجنّة والنّار »[١] .

وقد فسّر العلماء الحكمة بسنّته ﷺ[٢] وهى أقواله عليه الصّلاة والسّلام وأفعاله وصفاته وتقريراته ، والسّنّة تبيّن ما فى الكتاب من المجمل ، وتوضّح ما انبهم من المشكل ، وتفصح عن مقادير وعن أعداد ممّا لم يتعرّض الكتاب إليه ، وتثبت أحكامًا لم يتضمّنها الكتاب[٣] وقد قال عزّ من قائل[٤] : ﴿ وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون ﴾ وقيل فى معنى الحكمة إنّها المعرفة بالدّين والفقه فى التّأويل والفهم الّذى هو منحةٌ ونورٌ من الله تعالى . قاله مالك[٥] وقال ابن زيد : كلّ كلمةٍ وعظتك أودعتك إلى مكرمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة[٦] وقد علّق أبو حيّان على الأقوال المختلفة فى الحكمة[٧] : « وهذه الأقوال فى الحكمة كلّها متقاربة » .

وإنّ النّصّ على تعليم الرّسول الكريم أمّته معانى القرآن والسّنّة المطهّرة بعد النّصّ على تلاوة الكتاب العزيز دليلٌ أكيدٌ على أهمّيّة علم معانى القرآن الكريم ، وعلى كون السّنّة النّبويّة المطهّرة هى المفتاح الوحيد من أجل الوصول إلى أعماق معانى القرآن الكريم . ويجب أن يقترن بالتّلاوة وبالعلم العمل . وهنا يأتى النّصّ على ذلك فى ذكر المظهر الأخير من مظاهر هداية المصطفى ﷺ أمّته عن طريق تزكيتهم وتطهيرهم « ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم » « ويزكّيهم باطنًا من أرجاس الشّرك وأنجاس الشّكّ . وظاهرًا بالتّكاليف الّتى تمحّص الآثام وتوصل الإنعام »[٨] لنتأمّل شيئًا من سيرة السّلف العطرة فى هذا الشّأن . « قال أبو عبد الرّحمن السّلمىّ : حدّثنا الّذين كانوا يقرئوننا القرآن ،

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٩٣ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٣٩٣ وتفسير القرطبىّ ص ٥١٦ وتفسير ابن كثير ١ / ١٨٤ وتفسير الطّبرىّ ١ / ٤٣٦ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٩٣

(٤) سورة النّحل ٤٤ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥١٦

(٦) البحر المحيط ١ / ٣٩٣ .

(٧) البحر المحيط ١ / ٣٩٣

(٨) البحر المحيط ١ / ٣٩٣ .

كعثمان بن عفّان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنّهم كانوا إذا تعلّموا من النّبىّ ﷺ عشر آياتٍ لم يجاوزوها حتّى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا . ولهذا كانوا يبقون مدّةً فى حفظ السّورة ، وقال أنس : كان الرّجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ فى أعيننا . وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدّة سنين . قيل : ثمان سنين ، ذكره مالك »[١] و « قال عبد الله يعنى ابن مسعود : والّذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله منّى تناله المطايا لأتيته »[٢] وكان عبد الله بن عبّاس ، ابنُ عمّ رسول الله ﷺ ترجمانَ القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : اللّهمّ فقّهه فى الدّين وعلّمه التّأويل[٣] وقال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عبّاس أوقفه عند كلّ آيةٍ منه وأسأله عنها . ولهذا قال الثّورىّ : إذا جاءك التّفسير عن مجاهد فحسبك به . ولهذا يعتمد على تفسيره الشّافعىّ والبخارىّ وغيرهما من أهل العِلم . وكذلك الإمام أحمد وغيره ممّن صنّف فى التّفسير يكرّر الطّرق عن مجاهد أكثر من غيره[٤] وقال ابن تيمية عن مجاهد بن جبر : كان آيةً فى التّفسير[٥] والمعروف أنّ سنّة المصطفى ﷺ كانت تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن[٦] .

وهكذا يتبيّن قيمة هذه الأمور فى الإسلام وفق هذا النّسق : تلاوة القرآن الكريم وتعلّمه وتعلّم السّنة النّبويّة المطهّرة وتزكية النفس وتطهيرها بالعمل .

وتختم الآية الكريمة بتقرير صفتين من صفاته جلّ وعلا وهو الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوًا أحد . وأولى هاتين الصّفتين متعلّقة بالذّات وأخراهما متعلّقة بالأفعال ، ولذلك تقدّمت الأولى وتأخّرت الآخرة إضافةً إلى فاصلة الميم الّتى جاءت مرّتين من قبل فاصلة[٧] ﴿ إنّك أنت العزيز الحكيم ﴾ إنّ القادر على بعث

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٣١
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٦٤ .
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٦٥
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٣٢ .
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٣ / ٣٦٨
(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ١ / ٣٦٤ .
(٧) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٣٩٣ .

هذا الرّسول الكريم الّذى تلك بعض مهمّاته هو الله تعالى العزيز فى ملكه الّذى لا يعجزه شيء ، الحكيم فى صنعه الّذى ما ترى فى خلقه جلّ وعلا من تفاوت والّذى خلق كلّ شيءٍ فقدّره تقديرا .

الآيتان رقم (١٣٠ و ١٣١)

قال تعالى : ﴿ ومن يَرْغَبُ عن ملّة إبراهيم إلاّ من سَفِهَ نَفْسَه ولقد اصطفيناه فى الدّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين . إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ .

الآيتان الكريمتان مترابطتان ، ووجه الرّباط يتجلّى فى كون إبراهيم عليه السّلام قد قال له ربّه أسلم حينما اصطفاه فى الدّنيا .

لقد بيّنت الآيات الكريمات جانبًا مهمًّا من جوانب حياة إبراهيم عليه السّلام العطرة ، ابتداءً بنجاحه فى اختبار الله تعالى له بمجموعةٍ من التّكاليف ، الأوامر والنّواهى ، وانتهاءً بالمجموعة من الدّعوات الّتى خصّ بها ذرّيّته عليه الصّلاة والسّلام وهو الحليم الأوّاه المنيب . وإذا كان الحديث عن إبراهيم عليه السّلام قد ابتدأ بإخلاص العبادة لله تعالى ونجاحه فى ابتلاء الله تعالى له بالتّكاليف ، فإنّ الحديث عنه عليه السّلام فى الآية الكريمة التّالية ينتهى بتقرير إسلامه لله ربّ العالمين . وبهذا يتبيّن نجاح إبراهيم عليه السّلام فى أوّل الامتحان وفى آخره وفى كلّ مراحله .

وأولى الآيتين الكريمتين تقرّر فى صدرها فى هيئة الاستفهام الإنكارى التّوبيخىّ التّقريعىّ : « ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه » والمعنى : ومن يزهد فى دين إبراهيم عليه السّلام ويترك شريعته ويهجر ملّته وينصرف عن عقيدته إلاّ من سفه نفسه وجهل قدرها واستخفّ بها وجحد منافعها فى الأولى والآخرة ، وفعل بها من السّفه ما صار به سفيهًا ، كما قال الأخفش[1] وقال القرطبىّ[2] : « فيفكّر فى نفسه من يدين يبطش بهما ورجلين يمشى عليهما وعين يبصر بها وأذن يسمع بها ولسان ينطق به،

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥١٧ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٥١٧ .

وأضراسٍ تنبت له عند غناه عن الرّضاع ، وحاجته إلى الغذاء ليطحن بها الطّعام ، ومعدةٍ أعدّت لطبخ الغذاء ، وكبد يصعد إليها صفوه ، وعروق ومعابر ينفذ فيها إلى الأطراف ، وأمعاء يرسُبُ إليها ثُفْل الغذاء ويبرز من أسفل البدن ، فيستدلّ بهذا على أنّ له خالقًا قادرًا عليمًا حكيمًا . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ » . وقال الطبرىّ[١] : « فمعنى الكلام ، وما يرغب عن ملّة إبراهيم الحنيفيّة إلاّ سفيهٌ جاهلٌ بموضع حظّ نفسه فيما ينفعها ويضرّها فى معادها » .

وحينما نصادف مثل هذا الاستنتاج للعلماء الّذى عبّر عنه القرطبىّ مثلاً[٢] بالقول : « وقد استدلّ بهذه الآية من قال : إنّ شريعة إبراهيم شريعةٌ لنا إلاّ ما نسخ منها ، وهذا كقوله : ملّة أبيكم إبراهيم ، أن اتّبع ملّة إبراهيم » نستطيع أن نوسّع دائرة الفهم كى يشمل السّفه كلّ من رغب عن ملّة محمّد بن عبد الله ﷺ وعن دين الإسلام الّذى أكمله الله تعالى لنا عن طريقه وأتمّ به النّعمة ورضيه لنا . فما دام دين الإسلام الكامل إنّما جاء به محمّد ﷺ فمعنى هذا أنّ دائرة السّفه تتسع كى تشمل الّذين رغبوا عن ملّة إبراهيم عليه السّلام وملّة محمّد بن عبد الله ﷺ وقد عرفنا أنّ ما جاء به عليه الصّلاة والسّلام هو ملّة أبيه إبراهيم عليه السّلام الحنيفيّة السّمحة وقد أكملها الله تعالى له . وهكذا يدخل فى دائرة السّفه بمعنى الجهل والحمق والطّيش كلّ من رغب عن دين الإسلام الّذى جاء به محمّد ﷺ ، وهذا من باب الأولى والأحرى .

والآية الكريمة تنصّ على اصطفاء الله تعالى له فى الحياة الدّنيا فهو مصطفاه ومجتباه وخليله . وعلى كونه فى الآخرة من الصّالحين فهو يوم القيامة من أولياء الله تعالى الّذين قال فيهم[٣] : « ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكيف لا يكون سفيهًا ذلك الّذى يرغب عن ملّة إبراهيم الّذى جمع الله تعالى له خيرى الدّنيا والآخرة ، أمّا اصطفاؤه فى الدّنيا فقد جعله جلّ وعلا « صافيًا من الأدناس . واصطفاؤه بالرّسالة والخُلّة[٤] والكلمات الّتى وفّى ووصّى بها وبناء البيت والإمامة واتّخاذ مقامه مصلّى

---

(١) تفسير الطبرى ١ / ٤٣٦

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥١٨ .

(٣) سورة يونس ٦٢

(٤) الخُلّة بضمّ الخاء : الصّداقة .

وتطهير البيت والنّجاة من نار نمروذ والنّظر فى النّجوم وأذانه بالحج وإراءته مناسكه إلى غير ذلك ممّا ذكر الله فى كتابه من خصائصه ووجوه اصطفائه »[١] وأمّا اصطفاؤه فى الآخرة فيكفى أن يعلم أنّه قد اصطفاه الله تعالى بأكبر نعمتين يمكن أن ينعم الله تعالى بهما على عبدٍ من عباده وهما نعمتا النّبوّة والرّسالة ، بل إنّه أبو الأنبياء ، فكما كان كلّ الأنبياء بعد نوحٍ عليه السّلام من ذرّيّته ، كذلك كلّ الأنبياء بعد إبراهيم عليه السّلام هم من ذرّيّته . ويأتى على رأس قائمة المنعم عليهم بنصّ القرآن الكريم المرسلون والنّبيّون ، قال تعالى[٢] : ﴿ ومن يطع الله والرّسول فأولئك مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ ولعلّنا تبيّنّا منزلة الرّسالة الرّفيعة فى القول : ﴿ ومن يطع الله والرّسول ﴾ ويبدأ النّصّ على النّبيّين بعد ذلك باعتبار منزلة الرّسالة أعلى من منزلة النّبوّة ، وباعتبار النّبوّة الطّريق الوحيد المؤدّى إلى الرّسالة . فإذا كان المنعم عليهم يبدأون بالنّبيّين ، فلأنّ كلّ رسول نبىّ ولا ينعكس ، وفى ذلك دليلٌ على ابتداء المنعم عليهم بالمرسلين . والملاحظ أنّ الآية الكريمة أشارت إلى منزلة الرّسالة الرّفيعة والمتقدّمة على درجة النّبوّة وذلك فى القول : « ومن يطع الله والرّسول » فطاعة الرّسول المبعوث من الله تعالى من طاعة الله تعالى .

وكان توكيد الاصطفاء فى الدّنيا باللّام الّتى تفيد التّوكيد ، ويلحق بها قد الّتى تفيد هنا التحقيق « ولقد » وكان توكيد الصّلاح فى الآخرة بمؤكّدين ، إنّ ، واللّام « ولمّا كان إخبارًا عن حالةٍ مغيّبة فى الآخرة احتاجت إلى مزيد تأكيد »[٣] « ولقد اصطفيناه فى الدّنيا وإنّه فى الآخرة لمن الصّالحين » ومعروفٌ أن صفة الصّلاح مشتركة بين كلّ عّباد الله تعالى المنعم عليهم والمرضىّ عنهم ابتداءً برسل الله تعالى وانتهاءً بالصّالحين . وقد نصّت آية سورة النّساء الّتى تحدّثت عن الّذين أنعم الله تعالى عليهم على الصّالحين أخيرًا ، بينما جاء على لسانى يوسف وسليمان عليهما السّلام سؤال الله تعالى أن يلحقهما بالصّالحين وأن يدخلهما جلّ وعلا فيهم . جاء فى سورة يوسف قوله تعالى[٤] : ﴿ ربّ

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٩٥ .
(٢) سورة النّساء ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٣٩٥ .
(٤) الآية ١٠١ .